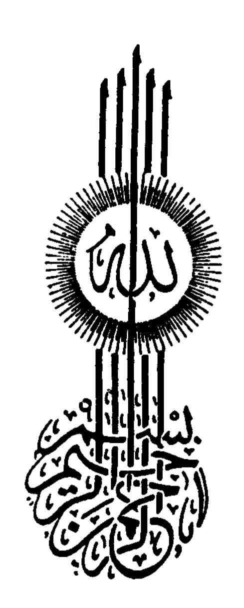
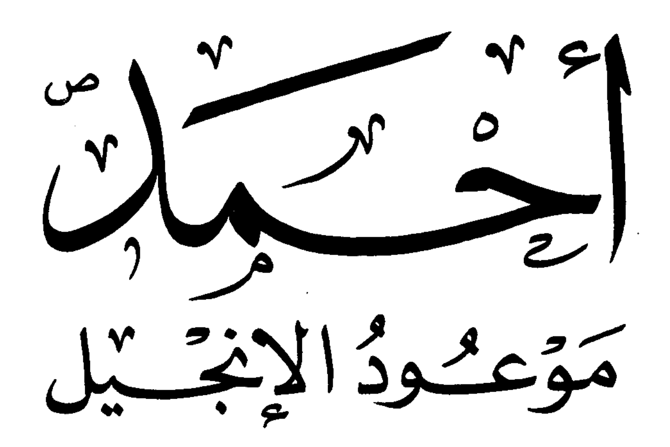

الشيخ جعفر السبحاني
أحمد
موعود الإنجيل
ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد
دار الهادي
بيروت - لبنان


أحمد
موعود الإنجيل





تأليف

الشيخ جعفر السبحاني



بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥٠ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس: ٢٠٧٧٧ - MCS ٢٢٥٩٧ بلاغ.
ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان.

شكر

نتوجه بالشكر للأخ السيد عاصم مكية على ما بذله من جهد في ترجمة هـذا الكتـاب ، وكـذا الأخ السيـد أبـو آلاء البصـري الـذي راجعـه وصححـه وأخرجه بالشكل المناسب . ونسأل الله أن يمنّ علينا بدوام التوفيق في طريق إعلاء كلمته ونصرة دينه .

لجنة الهدىٰ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ النبوّة والرسالة خالدتين ، ومما يوجبُ خلودهما وثبوتهما على الدوام وجودُ برهانٍ قاطعٍ ودليل ساطعٍ يكون حجةً واضحةً وجليةً تدلّلُ على حقيقةِ وجودهما وصدق النبيّ والمرسل بما جاء به من ربه وديموميته على مرِّ العصور والدهور .

فلو تناولنا ، على سبيل المثال لا الحصر ، إحدى المميزات المسندة بالمعجزة والمَدلّلة بالبراهين لرسالة النبيِّ محمد «ص» والمصدِّقة لرسالته هي عدم إقتصارها على زمانٍ أو مكانٍ معينين وذلك لارتباطها بعالم الوحي ، لا بل جاوزت حدود الزمان والمكان ، ومما جعلها مشرقةً وضاحةً كالشمس التي تبدِّد الظلام ، فقد تجلّت وأزاحت الحُجب عن بصرٍ وبصيرةِ المؤمنين وتراءت وهّاجةً لعيون المغرضين والمنافقين الذين طبع اللّهُ علىٰ قلوبهم والذين ﴿ **وجحدو بها واستيقنتها أنفسهم** ﴾ ألا وهي القرآن الكريم .

واليوم وعلىٰ أثر إندثار التراث الفكري الأصيل للأمم السالفة وإنطماس آثار الأنبياء الماضين واختفاء براهين نبواتهم ومعجزات

رسالاتهم ، فقد إنمحتِ من الوجود أديانٌ كثيرةٌ ونامت في عالم النسيان أسماء أنبياء أكثر ، وما واصل مسيره من الأديان إلى عالم اليوم ـ باستثناء الدين الإسلامي الحنيف ـ فإما محرّفٌ عن الأصل الصحيح أو مشوّهٌ بعيدٌ عن الحقيقة . وبسبب هذا الفراغ الفكري للأمم الغابرة وهذا الإنحراف في الأديان اللاحقة فإن فريقاً كبيراً من المفكرين الغربيين والذين هم بعيدون كلّ البعد عن محلِ ولادةِ السيد المسيح (ع) وإنبثاق الديانة المسيحية والتي كانت في الشرقِ إبتداءً ـ يرى بأن أصل حقيقة وجود المسيح (ع) وأمّه العذراء مريم ما هو إلاّ مجرّد إسطورة من إساطير الأولين ، وما هي إلاّ واحدة من قصص التأريخ المسطرة كقصةِ قيس وليلى أو قصة فرهاد وشيرين .

ونحن نستطيع أن نوعز السبب الحقيقي لهذا الفراغ الفكري وهذا التجرّؤ على مقام الأنبياء إلى تقصير الأمم السالفة والدول الغابرة التي لم يسعفها الحظ في حفظ آثار قادتها والعناية بسيرة زعمائها ، في الوقت الذي نرى فيه الأمة الإسلامية تقف على طرفي نقيض مع تلك الأمم ، في حفظِ كتابها المنزل على نبيها (ص) والأعتناءَ بسيرته المعطرة بل وحتى آثار أهل بيته الطاهرين وصحبه المنتجبين ، بما في ذلك قبره الشريف ومدافن أهل بيته والصالحين والأولياء من أتباعهم بالشكل الذي نراه ماثلاً في زماننا المعاش .

وعلى الرغم من تجرّؤ الأفكار المنحرفة وخباثة مبتدعيها للنيل من شخصية الرسول (ص) وسيرته وآثاره وقداسة أهل بيته (ع) فإن الدلائل الوضاءة ما زالت تشهد وتبرهن على وجود الرسول (ص) وكل معجزة جاء بها في زمانه وبقيت نوراً يشعّ في آل بيته الميامين . . . .

ومن أجل تعريف الشباب بالقرآن الذي هو معجزة النبي محمد (ص) الخالدة سعينا جاهدين ـ غير مدّعين ـ إلى تفسير سورة الصف بشكل مقبول

لكي يتمكن الذين يعنون بالمطالعة ومعرفة القرآن من الاستفادة ، والله ولي التوفيق .

جعفر سبحاني

١٥ شعبان ١٤٠٢

ما هي خصوصيات سورة الصف

سورة الصف هي السورة الحادية والستون من سور القرآن المجيد ، وتسمىٰ أحياناً بسورة الحواريين وأحياناً أخرىٰ بسورة عيسى ، وعدد آياتها بإتفاق جميع المفسرين هو أربعة عشر آية[1] ، وإن الآيات التي نزلت قبل الهجرة تسمىٰ «مكيّة» والآيات التي نزلت بعد الهجرة المباركة تسمىٰ «مدنيّة»[2] .

ومن أجل التمييز بين الآيات المكيّة والمدنيّة يمكننا الرجوع إلى مضامين السورة لمعرفة ذلك وإلاّ فالعودة إلى ما نقله المحدِّثون وما إتفق عليه المفسرون وما تواترت لديهم . وعليه فإن مضامين سورة الصف تؤكد

---

(١) مجمع البيان ج ٥/ ص ٢٧٧ .

(٢) بناءً على هذا فالآيات التي نزلت في حجة الوداع وفي أرض مكة ستكون مدنية على الرغم من أن هناك إصطلاحاً آخر الميزان فيه محل نزول الآية . وليس الزمان ، وبهذا تكون الآيات التي نزلت في حجة الوداع مكيّة ، ولكن المشهور هو ذلك الإصطلاح الأوّل .

على مدنيتها ، ناهيك عن إتفاق المفسرين على ذلك . ولا سيما إذا ما عرفنا بأن بيئة مكة كانت محّلاً لعبادة الأوثان التي يسودها جوُّ الشرك بالله تعالى ولذا فإن بلاغ الآيات المكيّة يتمحور حول التوحيد والمعاد وقصص وأخبار الأمم الغابرة وسيرة الأقوام التي حق عليها القول فدمرتْ تدميراً بغية العبرة والاعتبار يختلف في نوعيته عن الحديث في البيئة المدنيّة حيث المعارف العقلية الحقة التي لم تكن سائدة أو معروفة في المجتمع المكيّ الموبوء آنذاك لأن التحدث عن الجهاد في سبيل الله وأحكام الصلاة والصوم وشهادة الإنجيل والتوراة على نبوّة النبي محمد (ص) لا يتطابق مع واقع الحال لو كانت السورة مكيّة . وهذا ما يؤكد ويؤيد صحة حديثنا ، وعلى العكس مما سلف فإن الحديث أو نزول السورة في المدينة يبدو معقولاً أكثر لأن المدينة كانت مركزاً للمسلمين وللأقليات النصرانية واليهودية التي خصتها السورة بالذكر ، لا سيما وإن المدينة كانت مقراً يمكن أن يتعرض إلى هجوم المشركين في كل لحظة حيث جاءت آيات الجهاد تحث المسلمين على الجهاد عن مبادئهم وأصول دينهم بأموالهم وأنفسهم بعد أن ارتضوا بالإسلام واصوله الأخلاقية والإجتماعية وأحكامه العملية التي أمرهم بها نبيّهم وقائدهم (ص) .

وبناءً على هذا يمكن تشخيص الظرف الذي نزلت فيه السورة وزمان النزول من خلال مطالعتنا لمضامينها . ولا بأس أن نتعرض هنا لماهيّة المواضيع التي وردت بعد الآية الأولى التي اختصت بالتسبيح :

١ ـ وجوب تطابق القول مع العمل ، وخلافاً لذلك فإنه يترتب على الفعل المنافي للقول معصية كبرى .

٢ ـ محبة الله للمقاتلين في سبيله صفاً واحداً .

٣ ـ شكوىٰ موسى من قومه .

٤ ـ تصديق عيسى (ع) لما بين يديه من التوراة وتبشيره بالرسول الذي سيأتي من بعده ذاكراً اسمه الصريح .

٥ ـ فرقة تريد إطفاء نور الله ولكنها لن تفلح أبداً .

٦ ـ فرقة مؤمنة تشبه الحواريين من حيث الأيثار والفداء .

إنّ التدقيق في مضامين هذه الموضوعات دليلٌ ظاهرٌ على أن السورة نزلت بعد الهجرة النبوية إلى المدينة في الوقت الذي كان فيه المسيحيون في شبه الجزيرة العربية على إتصال دائمٍ مع رسول الله (ص) ، مما يتيحُ لنا أن نقول بعدم إنسجام بيئة مكة مع مثل هذه المواضع التي لا (تتلاءم) وما كان عليه أهل مكة من الشرك المطبق .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سبّحِ للّهِ ما في السمٰواتِ وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .
[الصف/ ١]

إنّ إحدىٰ الحقائق والمعارف السامية التي ذكرها القرآن الكريم هي : ـ تسبيحُ جميع ذرّات الكون للّهِ سبحانه وتعالى، ولا نعلم أو نعرف مذهباً يقول بهذه الدرجة من السعة في التسبيح له جلّتْ أسماؤه .

وبعبارةٍ أفصح : إن جميع ذرّات الحياة الدنيا بما فيها الكرة الأرضية والعالم أجمع إبتداءً من دقائق ذرّاتها وإنتهاءً بكوامن المجرّات والسُحب وما إليها تؤدي الوظائف العبادية التالية للّه سبحانه وتعالى :

١ ـ تسجدُ جميعُ موجودات العالم للواحد الأحد .

٢ ـ تمارسُ جميعُ الكائنات والعالم الذّري الحمدَ والثناءَ له تعالىٰ .

٣ ـ يُسبح للّهِ ما في السمٰوات وما في الأرض .

لقد ترفّع الله تعالى عن كلِّ شيء وأمر الجميع «الأُذن واللسان والروح والإحسان والإدراك والمسؤولية والنور والضياء والعلم والمعرفة . . .

بالخضوع والخشوع له سبحانه .

إنّ السجود يختلف إختلافاً جلياً عن الحمد والتسبيح لأن السجود بحدِّ ذاته خضوعٌ وتصاغرٌ في الوقت الذي يكون فيه الحمدُ والتسبيح وبياناً لكمال وجمال الله تعالىٰ وتنزيهاً له عن النقص والعيب .

«الاختلاف بين الحمد والتسبيح» :

كلّ وقت نتوجه فيه إلى الله تعالى ونمجّده لامتلاكه الصفات الكمالية والجمالية وباعتباره أصل الأعمال الحسنة والتي تؤدي بنا إلى الفوز العظيم يمكن أن نطلق عليه اسم «حمد» في حين يكون تنزيه ذات الله عن كلّ عيبٍ ونقصٍ وإظهار عظمته يسمى «تسبيح» .

وبعبارة أُخرى : الحمدُ هو وصف الله سبحانه قبالة الكمال (الصفات السامية والأعمال الحسنة ، على الرغم من أن هذا الكمال هو جزء من ذاته كالعلم والقدرة أو أفعاله التي لا تُعدّ ولا تُحصى كتفضّله بالرزق على الجميع مثلاً في الوقت الذي يكون التسبيح تنزيهاً له عن العيوب والنقائص (الصفات السلبية) .

وبهذا نكون قد وضحّنا الاختلاف بين الحمد والتسبيح ويلزمنا هنا أن نتعرض إلى المواضيع الثلاثة (السجود ، التسبيح ، الحمد والثناء) كما جاءت في القرآن الكريم :

١ ـ سجود الجميع لله تبارك وتعالى :

طرح القرآن الكريم مسألة سجود موجودات العالم بأشكالٍ وصيغ مختلفة ، ففي بعض الآيات تعرّض فقط لسجود الموجودات ذات الحسّ والشعور حيث قال : ﴿ **وللّه يسجدُ مَنْ في السمٰواتِ والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ**

والآصـــال ﴾[1] [الرعد/ ١٥]

إن ما جاء في الآية التي ذكرنا سلفاً ﴿ ولله يسجدُ مَنْ في السمٰواتِ والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ تعني خضوع جميع الموجودات ذات العقل[2] بدليل لفظِ «مَنْ» في جملة ﴿ولله يسجدُ مَنْ في السمٰوات ﴾ .

٢ ـ سجود ما في العالم من دواب وملائكة :

حيث أخذت بعض الآيات دائرةً أوسع للسجود فقد تطرقت الآية التاسعة والأربعون من سورة النحل إلى ذلك : ﴿ ولله يسجدُ ما في السمٰوات وما في الأرضِ من دابةٍ والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾[النحل/ ٤٩] .

٣ ـ سجود النجم والشجر :

وهنا يتطرّق القرآن الكريم إلى سجود النباتات إبتداءً من النبات الطفيلي الذي لا جذر له وحتىٰ الأشجار الكبيرة لله تعالى حيث ذكر في الآية

---

(١) وردت أحاديث السجود بالنسبة للموجودات العاقلة والمدركة في الآيات الأخرىٰ من مثل الآية «٤٩» من سورة النحل بعنوان سجود الملائكة ﴿ ولله يسجد ما في السمٰوات ﴾ ناهيك عن هذه الآية الموجودة في سورة الرعد/ ١٥ علاوة على آيات أُخر في أماكن متعددة من القرآن الحكيم حيث تدلل بوضوح على سجود المخلوقات أو الموجودات السماوية ـ أي تلك التي يكون مقرّها في السماء .

(٢) إن المقصود من السجود في الآية المذكورة والتي تعني جميع المخلوقات العاقلة هو سجود غير اختياري على الرغم من معرفتنا . ومما لا شك فيه إن الكثير من الموجودات العاقلة ـ مثل الأشخاص الكافرين ـ تركوا السجود الإختياري وتنكّروا لباقي العبادات ، وعليه فإن السجود في هذه الآية هو سجود «تكويني» حيث يشمل الجميع ولذا يمكن تقسيم السجود إلى قسمين «طوعي» و «كرهي» ، ولا بأس من التطرّق هنا إلى أن قبول أمر الخلقة يرتبط في بعض أحيانه بالمزاج المطابق لطبيعة الوجود المادي ، وأحياناً أُخرىٰ يكون خلافاً لذلك ، فعلى سبيل المثال : إن تبرعم أغصان الشجرة وتكاملها فيما بعد يعتبرُ مطابقاً للطبيعة ، أما جفافها وموتها بتأثير البرد يعتبر خلافاً للطبيعة ، وبهذا يُعتبر قبول الأوامر الألهية سجوداً طوعياً والثاني سجوداً كرهياً .

السادسة من سورة الرحمٰن ﴿ والنجمُ والشجرُ يسجدان ﴾ . [الرحمٰن/ ٦] .

٤ ـ سجود ظلال الأجسام :

ففي هذه المرحلة يتوسع السجود أكثر ليشمل ظلال الأجسام حيث يقول عزّ من قائل : ﴿ **أو لمْ يروا إلى ما خلق الله من شيءٍ يتفيّؤا ظِلاله عن اليمين والشمائل سُجّداً لله وهم داخرون** ﴾[النحل/ ٤٨] .

٥ ـ سجود الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوابُ :

وهنا يكشف القرآن الكريم عن سجود مَنْ في السمٰوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب حيث يقول تعالى :

﴿ **ألم ترَ ان الله يسجدُ له من في السمٰوات ومَنْ في الأرض والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُ وكثيرٌ من الناس** ﴾ . [الحج/ ١٨] .

وبناءً على هذا تكون قضية سجود الموجودات مسألة عامة شاملة لجميع ذرّات العالم وغير مختصةٍ أو محصورةٍ بمحيطٍ محدد .

والمهم في الأمر هو فهم حقيقة «السجود» وكيفية ممارسة الموجودات المدركة وغير المدركة لهذا السجود وتصاغرها أمام عظمة الخالق تعالىٰ .

ما هو المقصود من سجود الكائنات ؟ :

السجود بالنسبة للإنسان يكون عادةً وضع بعض الأعضاء على الأرض ومن جملة ذلك «الناصية» أو «الجبهة» وأحياناً الذقن ـ أسفل الرأس[1] ـ ولا

---

(١) لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الموضع حيث قال : ﴿ **إنّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلىٰ عليهم يخرون للأذقان سُجّداً** ﴾ [الإسراء ١٧] .
فالعلماء يتمرغون خوفاً وطمعاً حينما يُتلىٰ عليهم شيء من آيات اللّهِ دليل خضوعهم .

يخفىٰ على أحد من أن السجود هيئة ظاهرية لتذلل الروح وإبراز التواضع للمعبود تعالىٰ .

وهنا تطفو مسألةٌ على السطح وهي : هل يمكن إطلاق لفظة «السجود» والتي هدفها الأساسي هو كمال الخضوع على الهيئة أو الشكل الخاص بالسجود بدون تحقق الهدف المنشود منه ، أو أن الميزان للسجود هو إظهار الخضوع والتواضع في أي مكان يتحقق فيه هذا الأمر ؟ ونجيب على هذه المسألة فنقول : يمكن إستخدام لفظ «السجود» وإطلاقه على حالة التواضع والخضوع بدون الشكل والهيئة الخاصة المعروفة للسجود ، وإذا ما قلنا عن الشكل الخاص بالسجود «سجوداً» فلأن الناس قد علموا بأن هذه الحالة أو الشكل الخاص في حقيقته طريقةً لإظهار التصاغر والخضوع .

وينتخب القرآن الكريم كلمة السجود ليطلقها على كلّ أنواع التذلل والخضوع وكذا العقل والعرف أيضاً لا يجيدان عن استخدام كلمة «السجود» .

وإطلاقها على التذلل والخضوع حتى وإن لم يكن على هيئة السجود الشكلية .

وإن استخدام الألفاظ طبق العقل والعرف لا يتعدىٰ أن يكون على هذه الشاكلة ، فعلى سبيل المثال : إنّ لفظ السراج ـ وهي لفظة متدنيّة بعض الشيء إذا ما قيست بالمصابيح الحديثة الوهاجة ـ يمكن إطلاقه على كاشفات النور القوية بدون حرج ، لأن خاصية وأثر ذلك السراج القديم موجود في صورته الكاملة في مصباح اليوم .

حقيقة السجود في عالم الكائنات :

إنّ جميع الكائنات تبرز تواضعها وتذلّلها لمقام الربوبية بشكل أو بآخر . وإنّ أعلى مظاهر التعظيم للهِ جلّت قدرته ، والتصاغر أمام عظمته

هو : أنّ العالم في قبضته وتحت قدرته والجميع مطيعٌ لأوامره وإرادته المطلقة .

وبعبارةٍ أُخرىٰ : لا توجد غير إرادةٍ واحدةٍ حاكمةٍ على العالم بأسره وأنّ الجميع لا يتأتىٰ لهم مقاومة هذه الإرادة القاهرة .

وبناءً على هذا تكون السجدةِ بهذا المعنىٰ (الطاعة بدون سؤالٍ أو إعتراضٍ على الإرادة الألهية النافذة) ، ولا نعني الإكراه بالأمر ، لأن الإكراه يكون في حالة تملّك الموجود لإرادة واختيارٍ يتمكن بها من إظهار المقاومة ، ولكنّ المعروف والذي لا شك فيه ، أنه لا يوجد مخلوق تمكّن أو يتمكّن من إقامة وجوده بدون استمداد من القدرة الألهية المهيمنة وما عليه إلّا أن يتصاغر أمام مثل هذه القدرة وهذه العظمة ويسجدُ طوعاً ، والتصاغر والتذلل ـ كم أسلفنا ـ يمكن اعتبارهما سجوداً محضاً .

١ـ السجود طوعاً وكرهاً :

شاهدنا الآية القرآنية الشريفة من سورة الرعد التي تذكر كلمتي ﴿ **طوعاً وكرهاً** ﴾ وعلمنا بأن هناك نوعين من السجود لكل الكائنات ، سواءً الإنسان أو باقي المخلوقات وهما : سجود رغبةٍ ، وسجود كراهةٍ .

وهنا نكون مضطرين إلى انتخاب تفسير لهذين النوعين من السجود فنقول : إنّ السجود الطوعي هو ما يوافق طبع الإنسان أو أي موجود آخر من قبيل النمو أو الوعي أو الدورة الدموية وضربات القلب عند أي إنسان ؛ أما المقصود من السجود الكرهي فهو قبول سلسلة من الإشارات المخالفة للطبع الآدمي من قبيل الموت والبلاء الذي يحكم على الإنسان بالفناء قبل بلوغه آخر العمر .

وقد استخدم القرآن الكريم لفظتي طوعاً وكرهاً للسموات والأرض وما قيل بحقهما بالشكل الذي جاءت به الآية الكريمة التالية : ﴿ **فقال لها**

وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ .[فصلت/ ١١] .

وبناءً على هذا ، فقبول الوجود لكل أنواع التصرف سواءً كان موافقاً لطبيعة الموجود أو مخالفاً لها خاضعٌ لإرادة رب الأرض والسماء ، وهذا يعني ، أن كلّ هذه القبولات تتأتىٰ إما عن رغبةٍ تامة ، أو كراهةٍ نوعية حيث أن الحوادث المخالفة لمسيرة الموجود الطبيعية لا تخلو من الكراهةِ النوعية .

إن وجود أي موجود في قبضة قدرة الخالق سبحانه بل أنّ ظلال الأجسام هي أيضاً تابعة لإرادته ورغبته النافذة .

إذن فمن اللائق أن تكون كل أجسام وموجودات العالم بظلالها متصاغرة وخاضعة لإرادة المولى تعالى على الرغم من إمتناع الإنسان في بعض الأحيان عن أداء السجدة التشريعية لكنّه خاضع وخاشع تكوينياً[1] .

والآن أصبح لدينا واضحاً معنى سجود الموجودات والقصد من هذا السجود فسجدتها التكوينية لازمة لها من خلال حمدها وتسبيحها .

٢ ـ تسبيح جميع موجودات العالم :

فيما مضىٰ تعرضنا إلى الحمد والثناء مقابل الصفات الكمالية والثبوتية له تعالى ، وكذلك تعرضنا إلى تنزيهه سبحانه من النقائص والعيوب من خلال التسبيح له لترفّعه عن الصفات السلبية .

ولكون بعض الآيات التي هي مورد بحثنا تتعرض لموضوعين على السواء باعتبارهما من منبع واحد نكتفي بذكر آية واحدة لكل موضوع يمكن أن يدخل ضمن ما نريد تقسيمه من الآيات الشريفة التي تتعلق ببحثنا .

١ ـ في بعض الأحيان يأخذ تسبيح الموجودات دائرةً واسعةً وهذا ما

---

(١) راجع الآيات التي تتعلق بتسخير السمٰوات والأرض للإنسان .

يطلق عليه بالأمر العام حيث يقول تعالى :

﴿ سبّح لله ما في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ . [الحديد/ ١] .

إن لفظ «ما» وخلافاً لتصوّر البعض ، شاملة للعاقل وغير العاقل والقصد منها تسبيح جميع الموجودات في الأرض والسماء لله تعالى .

وعليه فإن الآيات التالية ١ و ٢٤ من سورة الحشر ، ١ من سورة الصف ، ١ من سورة الجمعة ، ١ من سورة التغابن ، تتناول مضمون ما تعرضنا له ، لا سيما وإن أكثرها إيضاحاً هي تلك التي وردت في سورة الإسراء حيث جاء فيها : ﴿ تُسبّح له السمٰواتُ السبعُ والأرضُ ومَنْ فيهنّ وإنْ من شيءٍ إلّا يُسبّحُ بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنّه كان حليماً غفوراً ﴾ .[الإسراء/ ٤٤]

إن النقطة الأساسية والتي ستكون فيما بعد دليلاً على قولنا هي : عدم إدراكنا لتسبيح الموجودات وعدم فهمنا لهذا التسبيح .

٢ ـ قد يكون تسبيح الملائكة أحياناً صريحاً وقد يكون كنايةً حيث يقول تعالى :

﴿ الملائكة يسبّحون بحمد ربهم ويستغفرون لِمَنْ في الأرض ﴾ [الشورىٰ/ ٥] .

وقد وردت آيات أخريات في القرآن الكريم حول تسبيح الملائكة فثل الآية ٢٠٦/ الأعراف ـ ١٣/ الرعد ـ ٢٠/ الأنبياء ـ ٧/ غافر ـ ٣٨/ فصلت ـ ٧٥/ الزمر لا بأس من مراجعتها .

٣ ـ في بعض الأحيان وبعد بيان عام للمسألة يدخل تسبيح الطير بعنوان تذكير بالشكل التالي : ﴿ **ألم ترَ أن الله يسبّح له مَنْ في السمواتِ والأرض والطير صافّات كلٌّ قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه** ﴾ [النور/ ٤١] .

ولو دققنا بعض الشيء في هذه الآية لعرفنا أن الله جلّت صفاته يعطي نسبة علمية لهذا القسم من المسبّحين ويعرفه بكيفية التسبيح حيث يقول صراحةً : ﴿ **كلٌّ قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه** ﴾ .

إن تسبيح الطيور جاء ذكره أيضاً في آيات أخرى من مثل الآية ١٠ من سورة سبأ ، والآية ١٩ من سورة ص .

٤ ـ جاء في بعض التصريحات أن الجبال كذلك وفي أوقات خاصة ومعينة تُسبّحُ لله جلّت قدرته إذ يقول عزّ من قائل :

﴿ **إنّا سخّرنا الجبالَ معه يُسبحّنَ بالعشيّ والأشراق** ﴾ .[ص/ ١٨] .

وقد ورد تسبيح الجبال في آياتٍ أُخر من مثل الآية ٧٩/ الأنبياء والآية ٩/ سبأ .

٥ ـ جاءت مسألة تسبيح الرعد لله تعالى بعنوان تذكير حيث قال سبحانه :

﴿ **ويسبّحُ الرعدُ بحمده** ﴾ [الرعد/ ١٣] .

أما الآن فعلينا أن نعرف ما هو المقصود من التسبيح ؟ .

التسبيح لغةً يعني التنزيه من النقائص والعيوب ، فكل موجودٍ ننعته بعدم النقص والعيب وننزهه ونقدسه يعني إننا نسبّحُ له ، وتنزيهه يطلق عليه «تسبيح» وعليه تكون حقيقة التسبيح هي التنزيه عن النقائص والعيوب ، وكلّ تفسير للتسبيح لا يتضمن تقديس المولى تعالى وتنزيهه عن العيوب لا يمكن إعتباره تفسيراً صحيحاً لمعنى التسبيح .

اراء المفسرين في تسبيح الكائنات :

لم يتمكن بعض المفسرين من فهم حقيقة تسبيح جميع الكائنات لله تعالى فهم يُشكِلون على ذلك التسبيح ويقولون بأن المراد من لفظ «ما» في الآية ﴿ ما في السموات ﴾ يقتصر على الموجودات العاقلة فقط والتي تتمتع بالشعور والإدراك من قبيل الملائكة والناس الذين يقدّسون الله تعالى بكامل الإدراك والشعور ، وبهذا تكون الموجودات غير العاقلة وغير المدركة غير مسبحة لله جلت أسماؤه[١]

في حين رفض كثير من المفسرين والعلماء تلك النظرية حيث قالوا بأن المقصود من لفظ «ما» العاقل وغير العاقل ، المدرك وغير المدرك ، وظاهر الآية يدلّ على ذلك لأن لفظ «ما» يطلق في الأعم الأغلب على جميع الموجودات على العكس من لفظ «مَنْ» الأكثر استخداماً وشيوعاً لأصحاب العقول والإدراك .

لقد حاول الكثير من العلماء تفسير التسبيح بأشكالٍ ومعانٍ مختلفة ولكنّ أغلب تلك المعاني لا يرتبط إرتباطاً وثيقاً بالمعنى الأصلي للتسبيح ، ولا بأس أن نشير هنا إلى مقاطع من نظريات البعض منهم بهذا الصدد :

النظرية الأولىٰ : المقصود من التسبيح : الخضوع التكويني لكلّ موجود تجاه إرادة الله ومشيئته ، فالكلُّ مطيعٌ وخاضع وراضٍ ومسلِّمٌ للقوانين التي سنّها الباري تبارك وتعالى لهم .

ويستدلُّ صاحبُ النظرية هذه على تسليم جميع الموجودات في العالم لإرادة الله سبحانه النافذة بالآية الكريمة التالية :

(١) قد تكون فرضية العلماء صحيحة في بعض الآيات التي تحتوي على لفظة «ما» ولكنها لن تكون صحيحة أبداً في الآيات التي تعرضت بصراحة لتسبيح الطير والجبل والرعد .

﴿ ثمّ استوى إلى السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرضِ إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلتْ ١١] .

بناءً على هذا فإن جميع الآيات التي تتعرض لسجود الأرض والسماء يمكن إعتبارها مؤيدة للنظرية[١] ، ولكننا لا نعتقد بأن هذه النظرية صائبة ، لأن مسألة الخضوع والسجود وتسليم جميع ذرّات العالم للإرادة الإلهية لا ترتبط بمسألة تنزيه وتقديس الحق من العيوب والنقائص ولا ينبغي للمنظِّرِ أنْ يخلط بين هذين الموضوعين ، وإنْ كان كلّ منهما في محلّه صحيحاً وصائباً .

النظرية الثانية : إنّ الكثير من المفسرين قد فسّروا التسبيح بالشكل التالي :

إنّ النَّظْمَ والنظام المحيّر للعقول لكل موجودٍ خُلِقَ بهذا الإتقان والدّقة لهو دليلٌ على القدرة الغير متناهية ، والعقل والشعور والحكمة الغير محدودة للخالق جلّت عظمته ، وكذلك التنظيم الدقيق والأسرار المعقدة لكلّ موجود تدلّ على وجود الصانع والخالق وتدللُّ باللسان التكويني على أنّ الخالق عليمٌ قديرٌ منّزهٌ عن كلّ أنواع العجز والجهل ، فعلى سبيل المثال ، ومن أجل تنزيه الله من الشرك يكون النظام الواحد حاكماً على الذّرة وعلى المنظومة الشمسية ، وهذا ما يدلل على أن التنظيم الذرّي يقع مباشرة تحت نظر الخالق فقط ويبرهن على عدم تدخّل أحد في نظامه . وهذا ما يؤكد عدم وجود شريك له مما يتيح للموجودات تنزيهه وتقديسه .

وخلاصة القول : إنّ حكومة النَّظم والقانون الواحد لمجموع عالم المخلوقات يدللُّ على أنّ الناظمَ والمنظِّمَ واحدٌ لا شريك له وأنه عليمٌ قديرٌ من خلال الأسرار الدقيقة والمقادير المتقنة في مخلوقاته .

---

(١) مجموع هذه الآيات ذُكِرتْ في تعرضنا للسجود حيث أشرنا إلى تفسيرها .

إنّ هذه النظرية معتمدة من قبل الكثير من المفسرين وعند التدقيق في جوانبها نلاحظ ما يلي : ـ

١ ـ إذا كان المقصود من تسبيح جميع الموجودات لله تعالى من خلال إدراك الجميع بهذا التسبيح وفهمهم له ، فإنه لا يبقىٰ مكان للآية ٤٤ من سورة الإسراء التي تقول : ﴿ **ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ لأن كلَّ فردٍ يدرك التنزيه يشمله إدراكه لحاله في الفهم والشعور والتفقّه .

وقد اضطرّ إلى إصلاح هذه النظرية فقال : إنّ عبارة «لا تفقهون» تعني عدم الإنتباه أو عدم الإلتفات ، إذ أن أكثر الناس لا يهتمّون أو ينتبهون لمثل هذه المواضيع . وقالوا أيضاً إن عظمة دلالة الموجودات على تنزيه الخالق تعالى جليلة جداً بشكل لا يمكن للإنسان معها أن يقف على واقعيتها . ولا يخفىٰ على أحد ما للتوجيه المذكور للجملة من خلاف للظاهر ، وإذا كان الله تعالى يعني ذلك لكان الأجدر أن يقول «وأنتم عنه غافلون» أو ما شابه ذلك .

٢ ـ إذا كان تسبيح الموجودات بهذا المعنى المتأتي من التدبّر في البناء الوجودي للأشياء فسيكون نوع التنزيه تكوينياً ، وهذا ما ندركه ، إذن فلماذا قال القرآن الكريم في سورة النور : ﴿ **ألم ترَ أن الله يسبّحُ له مَنْ في السمٰواتِ والأرضِ والطير صافاتٍ كلٌّ قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه** ﴾ [النور/ ٤١] واستناداً لهذه الآية يكون الله سبحانه قد أفهمنا وبأنّه قد علَّمَ الموجودات صلواتهم وتسابيحهم وبدون هذا التعليم لا يتأتىٰ للموجودات ممارسة التسبيح والتنزيه بل يقتصر إدراك التسبيح علينا نحن البشر من خلال التدقيق والتأمل وإمعان النظر ومن خلال إستخدامنا للّسان التكويني ولسان الحمد والثناء وتبقىٰ الموجودات الأُخرىٰ غافلة عن أعمالها .

٣ ـ إذا كان القصد من تسبيح الكائنات هو هذا الذي يراه أكثر المفسّرين فهذا النوع من التسبيح لا يُحدد بوقت معين لحقيقةٍ فيه ويمكن

للبشر إدراك ذلك إذا دقق في الأمر أكثر وفي كلّ الأوقات لإدراك تسبيح أيِّ موجودٍ كان وفي أيّ منظومةٍ كانت ، في الوقت الذي يفرز القرآن الكريم تسبيح الجبال ويقيده بالعشيّ والإشراق :

﴿ إنّا سخّرنا الجبالَ معه يُسبحّن بالعشيِّ والإشراق[1] ﴾ [ص/ ١٨] .

وبناءً على هذا فإنّ الملاحظات التي تتعرض للتسبيح التكويني والذي يمكن من خلاله تسبيح الله تعالى باللسان التكويني وتنزيهه عن المعايب والنقائص تكون صحيحةً ولكنها غير قادرةٍ على قبول مناظرة الآيات المتعلقة بتسبيح الكائنات لساناً .

النظرية الثالثة : هذه النظرية تتعلق بالفيلسوف الإسلامي الجليل المرحوم «صدر المتألهين» والذي يمتاز بنظريات شامخة في المسائل الغيبية وقضايا ما وراء الطبيعة وهو من المحققين والمؤسسين الكبار لأصول الفلسفة الإسلامية ولم يشهد العالم المتحضِّر رجلاً بِسعةَ تفكيره وتفتّح ذهنيته وبعد نظره وإدراكه العميق إلاّ قليلاً .

يقول صدر المتألهين : إنّ جميع موجودات العالم تسبّح وتنزه وتحمد الله وتثني عليه مع علمها وشعورها وإدراكها بذلك ، وإنّ كلّ موجودٍ مهما كان درجته ومنزلته ، ومهما كان قدره من الذّر يمتلك سهماً من العلمِ والمعرفة بالخالق العظيم والرب الكريم ومن خلال هذا الطريق يمارس هذا الموجود الحمد والثناء لله وينزهه عن العيوب والنقائص .

ويضيف قائلاً : إنّ العلم والإدراك في جميع مراحله ومراتب وجوده مأخوذٌ من واجبِ الوجود ليصل إلى الجميع بما فيه عالم النبات والجماد وإنّ

---

(١) إلاّ إذا كان الصبح والعصر كنايةً عن مجموع الليل والنهار وفي هذه الحالة يكون وقت التسبيح مطلقاً وغير محدود .

كلّ موجودٍ مهما كانت منزلته في الوجود له سهمٌ وحظٌ من الصفات العامة من مثل العلم والشعور والحياة و . . ولا يوجد كائنٌ خالٍ من هذه الصفات ، أمّا ما نراه ونتصوره من أنّه لا يمتلك شيئاً من تلك الصفات فذلك راجعٌ إلى ضعف الصفات وآثارها فيه مما يجعلها غير مكشوفة لنا ؛ وإنّ الموجودات في العالم كلما إبتعدت عن المادة وآثارها ، لتبدو بصورة موجودٍ مجرّدٍ أو في حال التجّرد ، قويت فيها الصفات وتجلّت ، وكلما إقتربت بلحاظ وجودها من المادة تضاءلت الصفات فيها وابتعدت عن الرؤية حتى يصل الأمر في بعض الأحيان إلى الظن بأنها فاقدةٌ للعلم والإدراك ولكنّ الحقيقة غير ذلك ، لأن الصفات وأصلها موجودٌ ولكنْ بشكلّ ضعيفٍ جداً بحيث لا نرىٰ إنعكاسه على مشاهداتنا .

وقد أثبت ذلك الموضوع عن طريق البراهين الفلسفية والمكاشفات النفسية الثابتة .

ويغورُ المرحوم صدر المتألهين أكثر في سبر أعماق المسألة فيقول : إنّ مقولة القرآن التي تتعرض إلى عدم فقاهة الناس وعدم فهمهم لتسبيح وتحميد الموجودات لا تحول دون البعض من أصحاب البصائر من الذين إرتبطت أرواحهم بحقائق الموجودات فتراهم يسمعون بآذانِ قلوبهم تسبيح وتنزيه الكائنات لله تعالى ناهيك عن معرفتهم بذلك التسبيح تجاه أوامر الله الحقّة .

فالقلب الذي خلىٰ من الوساوس والعلائق الماديّة والذي كان على الدوام مركزاً لهبوط أنوار الحق وبركاته المعنوية ، يرىٰ كلّ تلك الحقائق ويدركها عن طريق المكاشفة الوجدانية . وقد كشف الشاعر الإيراني «مولوي» عن هذه الحقيقة من خلال نظرته الخاصة فقال في الفارسية والتي ترجمت إلى اللغة العربية بهذا الشكل :

مَنْ فتحت لـه عيني على الغيب   عرف أسرار العالم المحجوب

حـديـث المـاء والأرض والـورد | محسـوس لـدىٰ أهـل البصيـرة
أيـن الفيلسـوف المنكـر لـ«حنـانـه» | والذي هو منكر لحواس أنبيائه[1]
ذرّات العـالـم الـخفـيـة | تتحـدث إليـك صُبحـاً ومسيّة
نحـن نسـمعُ ونبـصرُ ونطيـب | ونسـكـت معـكـم أيـهـا الغـربـاء
لأنكـم ذهـبتـم صـوب الجـمـاد | فمـتـىٰ تضـحـون محـارم للجمـاد
شـاع تسبـيـح الجـمـاد المسـمـوع | فـاتـرك تـأويـل الـوسـاوس
ولأن روحـك لا تمـلـك سـراجـاً | لـذا ضجّـت إلـى تتبـع التـأويـل[2]

وصل حديثنا إلى هنا حيث يمكن القول بلزوم تدبّر هذه الحقيقة القرآنية والتي تعرضنا لبعضها ، فإذا ما عرّف وبيّن القرآن المجيد تسبيح وثناء وحمد جميع الموجودات في العالم فإنه ومن جهة أُخرىٰ يشيرُ إلى أنّ جميع ذرّات العالم شاعرة وعارفة وسامعة ومدركة ؛ ولو تأتّىٰ لنا وضع هذين البعضين من الآيات إلى بعضهما البعض لوضحت للجميع وتجلّت نظرية صدر المتألهين بشكلٍ لا يقبل الشك حيث أن هذه الآيات تدلل على وجود الشعور والإدراك عند جميع موجودات العالم إبتداءً من الذّرّة وانتهاءً بالمجرّة .

---

(١) ولد هذا الرجل الكبير عام ٩٧٩هـ في مدينة شيراز الإيرانية وتوفي عام ١٠٥٠هـ في مدينة البصرة العراقية أثناء عبوره منها لزيارة بيت الله الحرام ، وقد ذكره السيد حسين البروجردي في تحفة المقال .

ثمّ ابن إبراهيم صدر الأجلْ | في سفر الحج مريضاً إرتحلْ
قدورة أهل العلم والصفاءِ | يروي عنِ الدامادِ والبهائي

وكلمة «مريضاً» على حدّ حساب الأبجدية تكون ١٠٥٠ إشارةً إلى تاريخ وفاته .

(٢) المثنوي ج ١/ ص ٨٦ بخط ميرخاني .

وجود الشعور عند جميع موجودات العالم

يمكن إثبات هذه النظرية من خلال طريقين :

١ ـ **الآيات القرآنية** : حيث إن الآيات الكريمة تؤكد على وجود الشعور عند جميع موجودات العالم من ذوات الأرواح وغيرها وهو دليلٌ قاطعٌ على ذلك الوجود .

٢ ـ **الدلائل العقلية** : حيث تثبت الدلائل العقلية وجود الشعور وحضوره عند جميع ذرّات العالم .

ونبدأ بتحليل وتفصيل الدليل الأول :

إنّ القرآن الكريم يدلّلُ بكل وضوح على وجود شعور خاص عند النمل حيث تعرّض لهذه المسألة في الآيتين ١٧ ، ١٨ من سورة النمل حيث قال :

١ ـ ﴿ **وحُشِرَ لسليمان جنودُهُ من الجّنِ والانس والطيرِ فهم يوزعون * حتى إذا أتوا على وادِ النملِ قالت نَمَلةٌ يا أيها النَملُ أدخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنودُهُ وهم لا يشعرون** ﴾[النمل/ ١٧ ، ١٨] .

لقد كان نداء النملة نداءً حقيقياً وواقعياً ولا يمكن أنْ يُحملَ على

محملِ المعنىٰ المجازي أو لسان الحال ، والدليل على ذلك ، طبقاً للنقل القرآني ، تبسّم سليمان لدىٰ سماعه قول تلك النملة .

٢ ـ ﴿ فتبسَّم ضاحكاً من قولها وقال ربِّ أوزعني أنْ أشكَرَ نعمتَك التي أنعمت عليَّ وعلىٰ والديَّ ﴾ [النمل/ ١٩] .

كما وأنّ القرآن الكريم تعرّض أيضاً لحكاية ذلك الهدهد ذي الشعور الخاص الذي كان يميز به بين المشرك والموحِّد ، حيث روى لنا القرآن حكايته بعد أنْ إفتقده سليمان ، **﴿ فقال مالي لا أرىٰ الهدهدَ أم كان من الغائبين * لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطانٍ مبين * فمكث غير بعيدٍ فقال أحطتُ بما لم تُحِط به وجئتك من سبأ بنبأٍ يقين * إنّي وجدتُ إمرأةً تملكُهم وأوتيتْ من كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيم * وجدتُها وقومَها يسجدون للشمسِ من دونِ اللّهِ وزيّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألاّ يسجُدوا للّهِ الذي يُخرجُ الخبءَ في السمٰواتِ والأرضِ ويعلمُ ما تخفون وما تُعلنون ﴾** [النمل/ ٢٠ ـ ٢٥] .

وهنا قال سليمان (ع) : **﴿ قال سننظرُ أصدقتَ أم كنتَ من الكاذبين * إذهبْ بكتابي هذا فألقِه إليهم ثمّ تولَّ عنهم فانظر ماذا يَرجِعُون ﴾** [النمل ٢٧ ، ٢٨] .

لقد كان الهُدهد دقيقاً جداً في أعماله وتعامله لأدراكٍ فيه شديد حيث يقدِّم تقريراً مفصّلاً لسليمان ويقوم بإبلاغ أمر وينتظر جواباً ، وهذا ما يدلّلُ على شعورٍ خاصٍ وحسٍّ مرهفٍ يمكّنه من إنجاز ذلك .

إنّ القرآن الكريم يعتبر معرفة سليمان (ع) لألسنة الحيوان من طيرٍ ونملٍ وغيرها من المفاخر التي كان سليمان يفخرُ بها ويعدّها نعمةً من اللّهِ عليهِ وتفضّلاً ، حيث يقول تعالى في محكمه العزيز :

٣ ـ ﴿ وورِثَ سليمانُ داوودَ وقال يا أيها الناسُ عُلِّمْنا مَنِطقَ الطيرِ

وأوتينا من كلِّ شيءٍ إنّ هذا لهو الفضلُ المبين ﴾ [النمل/ ١٦] .

ولقد كان لسليمان (ع) جنودٌ من الانس والجنِ والحيوانات يأتمرون لأمره :

٤ ـ ﴿ وحُشِرَ لسليمان جنودُه من الجّنِ والأنسِ والطيرَ فهم يوزعون ﴾ [النمل/ ١٧] .

يستفادُ من هذه الآيات بأن الطير على وجه الخصوص وجميع مَنْ يحمل بين جنبيه روحاً على وجه العموم يتمتعون بمعرفةٍ خاصةٍ ولو تأتّىٰ للإنسان الكاملِ إن يحكمَ صفحة العالم لتمكّن من محادثة جميع الكائنات الحيّة ولبسط هيمنته في تحكيم نظامٍ موحّدٍ يستطيعُ به كسرَ كلِّ مظاهرِ العبادات الباطلة .

شيوع المعرفة في الجمادات :

لقد ذكر القرآن الكريم في آياته متعرضاً إلى معرفة وإدراك الجمادات من خلال أفعالٍ بدرت منها تشير إلى ذلك حيث أشار إلى سقوط وهبوط الأحجار من أماكن معينة نتيجة خشيتها وخوفها من الله تعالى :

٥ ـ ﴿ وإنّ منها لما يهبطُ من خشية الله ﴾ [البقرة/ ٧٤] .

وإشارة أُخرىٰ وردت في سورة الأحزاب :

٦ ـ ﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السمٰواتِ والأرضِ والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسانُ إنه كان ظلوماً جهولا ﴾ [الأحزاب/ ٧٢] .

إن بعض المفسرين يقول بمجازية هذه الآية وأمثالها ويصطلح عليها بـ «لسان الحال» ، في الوقت الذي يكون فيه مثل هذا التفسير نوعاً من أنواع الحكم المرفوض لأن القرآن لا يقدّم غير الحقائق التي لا يمكن أن تُفَسَّر إلاّ

على الظاهر ، وإنّ أولئك الذين يقولون بأن العلم لم يتوصل لحد الآن إلى مثل هذه الحقيقة وهذا الشعور والإدراك نقول لهم : ليس من الضرورة أن يكون ذلك دليلاً على عدم وجود هذه الدرجة من الشعور عند الموجودات ، لأن وظيفة العلم تتمركز في الإثبات فقط ولا يحقّ له أن ينفيَ أو يسلبَ شيئاً من وجود أو عدم .

٧ ـ ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشيةِ الله وتلك الأمثالُ[١] نضربها للناسِ لعلّهم يتفكّرون** ﴾ [الحشر/ ٢١] .

ونحن لو وضعنا كل أنواع التحكيم في آيات القرآن الكريم جانباً لكان علينا أن نقول : إنّ الجبل يحظىٰ بلياقةٍ خاصةٍ حيث يخاطبه الله تعالى وبالمقابل فإنه جديرٌ بالخشوع والتصدع نتيجة هذا الخطاب وذلك لمعرفته الحقّة لعظمة خطاب الله تعالى وما يصدر هذا الخشوع والتصدع إلاّ من الوعي والشعور بالخشية من اللّهِ جلّ جلاله وهناك إشارات أُخرىٰ لمثل هذا الوعي والشعور وردت في في الآيات التالية :

٨ ـ ﴿ **وإنْ كان مكرُهم لتزولَ منه الجبال** ﴾ [إبراهيم/ ٤٦] .

٩ ـ ﴿ **تكاد السمٰواتُ يتفطرن منه وتنشقُ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هدّا** ﴾ [مريمٌ ٩٠] .

فإذا كانت الجبال لا تتمتع بالشعور والإدراك خارج إوضاعها أو أنّ مثل هذا الوصف بعيد عنها فإننا سنكون مضطرين لقبول التفسير الذي يقول بالمعنىٰ المجازي من قبيل المبالغة والتمثيل وسيكون حالنا كحال بعض المفسرين الذين يرون هذا الرأي .

ولكنّ الآيات المرتبطة بيوم البعث تكشف لنا عن إسرارٍ عظيمة حيث

---

(١) المثنوي ج ٣/ ص ٢٢٧ .

أن الأيدي والأرجل والجلود تشهد على جرائم الإنسان .

١٠ ـ ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور/ ٢٤] .

١١ ـ ﴿ اليومَ نختمُ على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهدُ أرجلُهم بما كانوا يكسبون ﴾ [يس/ ٦٥] .

١٢ ـ ﴿ وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا اللّهُ الذي أنطقَ كلَّ شيء ﴾[فصلت/ ٢١]

إنّ القرآن الكريم وبكل وضوح يشهد على أنّ الأرض يومَ القيامةِ تنطقُ وتتحدثُ وتخبرُ بوحيٍ من الله تعالت قدرته .

١٣ ـ ﴿ يومئذٍ تُحدِّثُ أخبارها * بأنّ ربك أوحىٰ لها ﴾ [الزلزلة ٤ ، ٥] .

ويتحدث القرآن بشكل صريح عن طاعة السماء والآرض وجوابهما ومجيئهما .

١٤ ـ ﴿ فقال لها وللآرضِ إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلت/ ١١] .

إنّ هذه الآيات ونظائرها يمكن أن تساعد أولئك الذين يرومون فهم معاني القرآن المجيد والذين وضعوا التحكيم جانباً ، وتبين لهم حقيقة وجود الإدراك والشعور بشكله العام لدىٰ جميع الموجودات في العالم ولكنّ حقيقة هذا الشعور وكيفية ذلك الإدراك ومدىٰ درجته فهذا غير واضحٍ لدينا .

وفي الأدعية الإسلامية نشاهد ما يشير إلى بحثنا هذا حيث ننقل إليكم إنموذجاً يدلّلُ على ذلك :

« تسبّحُ لك الدوابُ في مراعيها والسباعُ في فلواتها والطيرُ في

وكورها ، وتسبّحُ لك البحارُ بأمواجها والحيتانُ في مياهها » .

ونقرأ كذلك ما يقوله الإمام علي بن الحسين (ع) عند رؤيته للهلال : « أيها الخلقُ المطيعُ الدائب السريع المتردد في منازلِ التقدير »[1]

وخلاصة القول : إنّ وجود هذه الآيات والروايات التي تدللُ على حاكميّة الشعور والإدراك في موجودات العالم يدفعنا إلى الإعتقاد بأن تفسير تسبيح الموجودات هو كما يراه المرحوم صدر المتألهين في نظريته ، تسبيحٌ واقعيٌّ وحقيقي وإن موجودات العالم تسبّح لله تعالى بلسانها الخاص وليس بلسان الحال الذي تدّعيه نظريات السالفين .

الدليل الثاني : الدليلُ العقلي لإثبات هذه النظرية .

هذه النظرية يمكن إثباتها بالدليل العقلي وكذلك بأصولِ «الحكمة المتعالية»[2] ، وخلاصتها : إنّ الوجود وعالم الذرّات في كلٍّ مقام ومرتبةٍ يلزمه العلم والشعور والإدراك حيث يمكن اعتباره توأماً مع العلم والشعور والإدراك ، وكلٌّ له نصيبٌ وسهمٌ من الوجود . وعالم الذرّات بقدر ما عنده من الوجود يحظىء بنصيبه وسهمه من العلم والشعور والإدراك .

إنّ الدلائل الفلسفية تؤيد هذه النظرية وإنّ أساس البرهان الفلسفي هذا يستند إلى شيئين :

١ ـ في عالم الذّرّات ما نراه أصيلاً ومنبعاً للآثار والكمالات هو الوجود ، وكلّ نوعٍ ، فيضٍ معنويٍّ أو ماديٍّ هو من ذلك الوجود . فإذا ما ساد العالمَ العلمُ والإدراكُ والقدرةُ الحياتية فذلك من جرّاء الوجود ، وإذا ما ذهب الوجود من البين خمدت الحركة وانطفأ السعي والنشاط حينها تذهب

---

(١) الصحيفة السجادية/ دعاء رقم ٤٣ .

(٢) الحكمة المتعالية : هي فلسفة صدر المتألهين والتي وجدت لها طريقاً إلى الفلسفة الإسلامية وأصبحت مذهباً خاصاً وغدت مدرسةً .

الفعالية والحيوية التي نعيشها الآن .

٢ ـ إنّ الوجود في تمام مراحله الجزئية من واجبٍ وممكن ، مجرّد ومادّي ، عرضي وجوهري حقيقة قائمة ، وإن كان غير واضح لنا لكنّه يمكن أن يقال عنه بأنه خلاف العدمية والطرد لكونه حقيقة عينية وواقع معاش ، هذا في حالة أشارتنا إلى بعض المفاهيم الذهنية .

وبناءً على هذا فأينما وجدنا هاتين الصفتين (الطرد والعدم) علمنا بتشكيل حقيقة الوجود العينية وعليه نقول : أنّ الوجود في تمام مراحله ليس أكثر من حقيقة ، وإنّ حقيقة الصفتين التي ذكرنا في جميع المراحل يمكن اعتبارها واقعاً محسوساً .

وبناءً على هذا البيان نقول بأن الوجود منبع جميع الكمالات وإنّه حقيقة لا يمكن تجاوزها أبداً ، ومن هنا نحصل على النتيجة التالية :

إنّ الوجود وفي أي مرتبةٍ من مراتبه الذّرّاتية من قبيل الموجودات الحيّة والحاملة لأثر (العلم والإدراك) تخطىء بسهمٍ أو نصيبٍ من الوجود يرتبط في جميع مراحله بهذا الأثر (العلم والإدراك) وبغير هذا لا يكون الوجود منبعاً للكمالات . أو إن وجود الحقائق نراه متبايناً ونرىٰ حقيقته في مرتبة الكائنات الحية فقط ناهيك عن تباينه ومغايرته لمراتب النباتات والمعادن ، وعلى علمنا أن هذا التباين والمغايرة لا معنى لها ، لأن الأمر يصبح بهذا الشكل : حقيقةٌ في إحدىٰ مراتبها تمتلك أثراً ، وفي مرتبةٍ أخرىٰ تكون فاقدةً لذلك الأثر وهذا لا معنى له .

وبعبارةٍ أُخرىٰ : في أي مكانٍ يكون فيه الوجود حاصلاً على حقائق مختلفة ومتباينة يمكن رؤية نقطة من نقاطه واجدة لأثرٍ معينٍ وفي نقطة أُخرىٰ لا يُرىٰ أثرٌ لوجودٍ أبداً ، وعلى كل حال ففي كل مكان يمكّن أن يكون ذلك حقيقة ليس إلاّ ، ومصداق ذلك هو التفاوت والتباين في شدة وضعف

الوجود في هذه أو تلك النقطة ، وبغير هذا فلا معنى لحقيقةٍ تفتقد إلى أيّ أثر في إحدىٰ مراحلها وفي أخرىٰ يكون الأثرُ فيها جلّياً .

هذه خلاصة البرهان الفلسفي للمرحوم صدر المتألهين في أسفاره[1] والذي أسهب في موارد مختلفة بالتطرّق إليه حيث كان يقول :

إنّ ظواهر الآيات القرآنية تؤيد هذه الحقيقة ﴿ **وإنْ من شيءٍ إلاّ يُسبّحُ بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء/ ٤٤] .

إن المرحوم صدر المتألهين أدرك هذه الحقيقة الفلسفية والقرآنية أيضاً عن طريق الشهود والمكاشفة وقد كتب بنفسه أشعاراً في هذا المضمون في رسالة «السير والسلوك» جاء فيها ما ترجمته :

إنّ العــــارف يـــرىٰ جميــــع ذرّات العـــالــــم تُسبّـــح
فـــالكـــفُّ الخـــاليـــة فـــي دنيـــا الحيـــاة
يـــراهـــا العـــارفُ كتـــابـــاً مُستبينـــاً
وكلمـــــا رأىٰ بــــذراً فـــــي بستـــــان
إستضـــــاء فـــــي دماغــــــه نـــورٌ
إنّ المخفـــــــيَّ يظهـــــــرُ بفعلـــــــهِ
كخـــــروجِ الأشيـــــاء مـــــن الأرض
وأمّـــا الغـــربـــاء فقـــد عميـــت عيـــون قلـــوبهـــم
وإلاّ فكـــلّ الـــذّرّات لا تخلـــو مـــن النـــور
إقـــرأ أنـــت آيـــة «نـــور السمٰـــوات»
حينهـــا تـــرىٰ مجمـــل الـــذّرّات شمســـاً ســـاطعـــة
لتعلـــــم أنّ كـــــلّ ذرات التـــــراب
لهـــا نـــورٌ مـــرجعـــه إلـــى المـــولـــىٰ تعـــالـــىٰ .

---

(١) الأسفار ج ١/ ١١٨ و ج ٦/ ١٣٩ ـ ١٤٠ .

تمادي الشعور وعلم اليوم :

لحسنِ الحظ فقد أثبت العلماء والمحققون في زماننا هذا وجود العلم والإدراك في النباتات بعد تحقيقات مضنية ، وعلى ذلك فالعلماء الروس يعتقدون بأن النباتات لها اعصاب تتأثر ناهيك عن إستغاثاتها ، فقد سجل المختبر الزراعي في موسكو صراخ وبكاء جذور الحشائش عندما وضعت في ماءٍ ساخن . كما أعلن راديو موسكو قبل فترةٍ من الزمن جزءاً من نتائج تحقيقات العلماء الروس الذين يعملون ضمن المختبرات النباتية وقال : إن العلماء الروس توصلوا إلى أن النباتات تمتلك جهازاً شبيهاً بشبكةِ الأعصاب التي تمتلكها الحيوانات ، وهذه النتيجة المختبرية توصّلَ إليها أحد العلماء بعد نصبه لمرسلةٍ على ساق وجذور نبات القرع ، وبعد مراقبات متلاحقة ومستمرة أظهرت النبتةُ ردَّ فعلٍ حينما قُطِعَ أحدُ فروع جذورها ، وفي الوقت ذاته إجريت عمليات مختبريةٍ مشابهة في المختبر الفيزيولوجي لعلم النبات التابع للعلوم الزراعية حصل العلماء على نتيجةٍ مشابهةٍ لتلك التي أُجريت على نبات القرع ، حيث صرخت جذور النباتات وبَكَتْ حينما وضعت في ماء ساخن . ومن الطبيعي أن ذلك الصراخ والعويل غير مسموع ولا مرئي ولكن يمكن إكتشافه من خلال الشريط المسجّل للجهاز الإلكتروني الدقيق[1] .

٣ ـ «قول بلا فعل» :

٢ ـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولونَ ما لا تفعلون ﴾ [الصف/ ٢] .

٣ ـ ﴿ كَبر مقتاً عند اللهِ أنْ تقولوا ما لا تفعلون ﴾[الصف/ ٣] .

---

(١) صحيفة إطلاعات العدد ١٣ فبراير ١٩٦٣ .

إن الأفكار والنظريات المطروحة من قبل العلماء والمفكّرين تتفاوت من حيث القيمة والإعتبار بشكلٍ جليّ ، فالأفكار والنظريات التي أُدخلتْ في اختباراتٍ ومتابعاتٍ كثيرة تحظىٰ بأهميّةٍ وقيمةٍ خاصة أكثر ومقامٍ أفضل من تلك التي لم تتابع بجد . .

وتبيان هذه المسألة هو : إنّ صاحب النظريّة بقدر تحمله المشاق والتعب والألم في سبيل إثبات نظريته والبرهنة على صحتها ستكون ثقة الناس به وإطمئنانهم إليه على الرغم من أنها ستبقىٰ محدودة القبول بل مرفوضة عند البعض لأن قيمة الفكر المطروح في النظرية ، وجهد المنظِّر المبذول في إجتذاب أفكار الناس إليه وإقناعهم بصحة نظريته يكمنُ في إيمانه بنظريته أولاً ، ومدىٰ إلتزامه بالعمل بها ثانياً ، باعتبار ما طرح من أفكار وآراء ليست لمجرّد الفرض أو الطرح بل للعمل والترجمة إلى الواقع العملي الذي يبدأ من نفسه قبل أن يطالب الغير بالإيمان بها والعمل على ضوئها .

وبناءً على هذا فنظرية المفكّر أو المنظِّر تلقىٰ تأييداً كبيراً وتحظىٰ باحترام الناس من خلال تطبيق مبتكرها أو صاحبها للمبادىء المطروحة فيها على نفسه أولاً والتقييد عملياً بما ورد فيها قبل أن ينتظر من الآخرين العمل بها ، وبغير هذا يكون الفكر المطروح مشكوكاً فيه مهما كان سليماً ومطابقاً للواقع ، وإن صورته الفكرية ستبقىٰ متزلزلةً بين الصحة وعدمها في أذهان الناس .

وقد صدّق الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) ذلك في تفسيره لإحدى آيات القرآن الكريم في بيانٍ مختصر يحملُ مغزىً واقعياً حيث قال :

« العـالِمُ مَـنْ صدّق فِعلهُ قوله ، ومَنْ لم يصدق فعلهُ قوله فليس

بعالم »[1] .

نفهم من هذا الحديث أنّ مكتشف النظرية العلمية غير العامل بها لا يمكن اعتباره عالماً ، وليس لنظريته أيّ تأثير على الآخرين مهما كانت نظريته مطابقة للعلوم البشرية .

ولكن في مقام الإثبات وجلب أنظار عامة الناس وجذب قلوبهم إلى حقيقة وكيفية تلك النظرية لا يتأتىٰ بالتفاخر على الآخرين بأنه يُلْهَمُ العلمَ إلهاماً ويزقّه إليهم ويأمرهم بالعملِ به دون نفسه بل يتأتّىٰ ذلك من خلال تطابق النظرية مع فعل وسلوك المنظِّر .

ويقول الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) بصدد هذا الموضوع :

« إنّ العالِمَ إذا لم يعملْ بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلُّ المطرُ عن الصفا »[2] ، والصفا تعني الصخرة الصلدة الملساء .

أي إذا سلك العالم سلوكاً مصلحيّاً إفتعالياً لكي يطابق قول نظريته لم يتمكن الدخول إلى قلوب الناس ، علاوة على ذلك فإنه وبمرور الزمن ونتيجةً لسلوكه المصلحي المزيّف سينسىٰ بعض ذلك السلوك والتصرف وعندها ستنكشف حقيقته التي لا تنسجم مع نظريته وسيهمل الناسُ تلك النظرية وتصبح نقطة في عالم النسيان .

أفضل الموعظة ما كانت عملية :

من الأخطاء التي نلمسها من البعض هي تصورهم بأن كلامهم من الساحريّة والتأثير على السامعين بدرجة تجعلهم ـ أي البعض ـ غافلين عن ممارسة الموعظة العملية بدلاً من هذا الكلام الساحر ، لأن تأثير عملٍ صغير

(١) أصول الكافي ج ١/ ١٨ .
(٢) أصول الكافي ج ١/ ٤٤ .

يقوم به الواعظ على أفكار العامة لا يمكن أن يَشْغِل مكانه عشرة وعّاظ . ولهذا فإن الأنبياء تمكنوا من إجراء برامجهم الإصلاحية التي بُعثوا من أجلها بواسطة سلوكهم العملي لكونهم يؤمنون إيماناً راسخاً ويعتقدون إعتقاداً كاملاً بما يقولون ولذلك كانوا يعملون بما يؤمنون ويعتقدون .

لقد كان رسول الإنسانية محمد (ص) يقول للناس بما أنزل الله عليه : ﴿ **إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار** ﴾ [الأنفال/ ١٥] .

فلم يره أحدٌ يعمل خلاف ذلك وحتى في أكثر الظروف صعوبةً وتعاسة ، فقد كان ثابتاً صامداً في ميادين الحرب والقتال بل كان ملجأً يلوذ إليه أصحابه ، وهذا فارسُ الأبطال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) يُدلي بشهادته قائلاً : «إذا إحمرّ البأس إتقينا برسول الله ، فلم يكن أحدٌ منا أقرب إلى العدو منه»[١] .

أفضل مذهب تربوي :

إنّ المفكرين والمصلحين العالميين يشرعون بادىء ذي بدء بإصلاح أنفسهم التي هي مركز الإشعاع نحو التحول والإنقلاب إلى الأفضل ، بعد ذلك يبدأون بعملية إصلاح الآخرين وبهذه الطريقة يمكن لهم كسب قلوب الآخرين وجذبها نحوهم ، وهي ذات الحقيقة الإجتماعية التي جسدّها الإمام علي (ع) وقد وردت إلينا في مواعظه القصار : « مَنْ نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه »[٢] .

---

(١) نهج البلاغة ـ محمد عبده ج ٣/ ٢١٤ .

(٢) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح ص ٤٨٠ ح رقم ٧٣ .

لماذا معصيةٌ كبرىٰ :

إن الآية الثالثة من سورة الصف تقول : **﴿ كَبر مقتاً عند الله أنْ تقولوا ما لا تفعلون ﴾** حيث إن الله سبحانه وتعالى إعتبر عدم إنسجام وتطابق القول مع العمل في عداد الكبائر من الذنوب ، وعلة ذلك إنّ بعضاً من المدّعين بالعلم والحق يتهتّكون بالمقدسات أمام أنظار العامة من الناس مما يولّد لديهم سوء الظن بمقدساتهم ولم يفت أمير المؤمنين (ع) ذكرها في قوله : «قصم ظهري إثنان : جاهل متنسّك وعالمٌ متهتّك ، فالجاهلُ يغش الناس بتنسّكه والعالم يغرّهم بتهتّكه»[1] .

وعليه يجب الألتفات إلى الحقيقة التالية : إنّ حاسة الذوق لن تصير حلوة المذاق بقول كلمة «سُكّر» ولا يمكن جلاء ظلمة الليل الحالك بذكر كلمة «سراج منير» ولا يتأتّىٰ للرياضِ أن تزهر بنطقِ كلمة «الورود» ولا يفوتنا أن نذكر قولاً لأحد أساتذة الأدب الذي كان يردد :

مائتا كلمة لن تغدو نصف فعل .

إنّ ثمرةَ شجرةِ العلمِ لا تُعرف إلاّ بالعمل .

ولا بأس أن نتطرق إلى مثالٍ حيٍّ من واقعنا المعاش :

لو أنفق التجارُ وأصحاب المعامل الكبيرة أموالاً طائلة على البرامج الإعلاميّة والدعايات التبليغية بغية تصريف بضائعهم ومنتجاتهم فإنهم لن يحصلوا على الربح الذي يبغون بالقدر الذي لو أنفقوا هذه المبالغ الكبيرة على رفع المستوىٰ المعاشي وتحسين ظروف عمّالهم والإهتمام بجودة الإنتاج ورفع الكفاءة الإنتاجية وقدرتها .

وعلى صعيد التبليغ الإسلامي فإننا نرىٰ بعض الأعمال الفرعية في الإسلام تدهش وتعجب وتجذب الآخرين وتجعل منهم مريدين للإسلام

---

(١) بحار الأنوار ج ٢/ ١١١ .

بدون أن يشعروا . . . .

فعلى سبيل المثال لا الحصر ، يروىٰ أنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) خلال رحلةٍ له إلى الكوفة صاحب رجلاً ذمياً فقال له الذّمّي : أين تريد يا عبد الله ؟ فقال أمير المؤمنين : أريد الكوفة . . . فلما عدل الطريق بالذّمّي عدل معه أمير المؤمنين (ع) فقال الذّمّي : ألستَ زعمتَ بأنك تريد الكوفة ؟ فقال أمير المؤمنين : بلىٰ ، فقال الذّمي : فقد تركت الطريق . فقال : قد علمتُ ، قال : فلمَ عدلت معي وقد علمتَ ذلك ؟ فقال أمير المؤمنين : هذا من تمام حسن الصحبة ان يشيّع الرجل صاحبه هنيئةً إذا فارقه وكذلك امرنا نبينا (ص) فقال الذمي : هكذا أمركم ؟ فقال : نعم فقال الذّمي : لا جَرَمَ إنما تَبَعهُ مِنْ تَبِعهُ لأفعاله الكريمة ، فأنا أشهدك إني علىٰ دينك . ورجع الذّمّي مع أمير المؤمنين (ع) فلما عرفه أسلم[1] .

ومن الجدير ذكره أنّ ذلك الإنقلاب الروحي للذمّي كان على أثر مشاهدةٍ جزئية من البرنامج العام للإسلام الذي يؤكّد على العمل المطابق للقول لأن الذي يعمل بعقائده الدينية يستطيع أن يكسب الآخرين ويجذبهم نحوه بعكس الذي اكتفى بإسلام اللسان وارتضىٰ بظواهر الأمور دون جواهرها فإن ذلك موجِبٌ لنفور النَاس منه وانفراطهم عنه ويكون مصداقاً لقول المسيح (ع) : «أشقى الناس مَنْ هو معروفٌ عند الناس بعلمه مجهولٌ بعمله»[2] .

جاء في سفينة البحار عن أمير المؤمنين علي (ع) : «كونوا دعاة الناس بغير ألسنتكم»[3] .

وفي الختام اذكرٌ بنقطتين مهّمتين :

---

(١) أصول الكافي ج ٢/ ٦٧٠ الطبعة الحديثة .
(٢) سفينة البحار ج ٢/ ٢٧٨ .
(٣) سفينة البحار ج ٢/ ٢٧٨ .

١ ـ المذمة التي جاء بها القرآن الكريم حيث قال :

﴿ أتأمرون الناسَ بالبرِّ وتنسَونَ أنفسَكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ [البقرة/ ٤٤] .

وكذا جاء في سورة الشعراء ما يشابه ذلك حيث يقول :

﴿ والشعراء يتبّعهم الغاوون * ألم ترَ أنّهم في كلِّ وادٍ يهيمون * وإنّهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ [الشعراء/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦] .

وكذلك ورد في سورة آل عمران ما يؤكد تؤامة القول والعمل :

﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ [آل عمران/ ٧٩] .

وأيضاً ما جاءت به سورة الزمر : **﴿ فبشِّر عبادِ * الذين يستمعونَ القولَ فيتبعـون أحسنَـهُ أولئـك الـذيـن هـداهـم الله وأولئـك هـم أولـوا الألبـاب ﴾** [الزمر/ ١٧ ، ١٨] .

٢ ـ المـذمّـة التـي وردت علـى لسـان الـرسـول الأكـرم (ص) والأئمـة الأطهار من أهل بيته عليهم السلام والتي تناقلتها الروايات الكثيرة حول إدانة العالم الغير عامل وذم القول اللا مطابق لعمله . فمن أرادها ؛ فعليه مراجعة كتاب الكافي الجزء الأول في الصفحات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ وكذلك مراجعة بحار الأنوار في جزئه الأول في الصفحات من ٢٦ إلى ٤٠ من الباب التاسع .

٤ ـ الجهاد في سبيل الله

﴿ إنّ الله يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيانٌ مرصوص ﴾ [الصف/ ٤] .

إن المتأثرين بالمدنية الغربية وأجهزتها وصناعاتها تفسير جميع المسائل الإسلامية بما تمليه عليهم أهواءهم ورغباتهم وميولهم الشخصية فاتحين كل أبواب أفكارهم لتيار الأفكار الغربية التي أعمتْ بصائرهم عن الحقيقة وأبعدتهم عنها فراسخ عدّة بسيرهم بفلكها وتقليدهم الأعمىٰ لها .

إنّ مثل هؤلاء الأفراد يحملون بين جنباتهم عقدة الحقارة والشعور بالنقص يظهر ذلك من خلال إكبارهم وإحلالهم لتقدم الغرب التكنولوجي وللطراز الخاص في تفكيرهم وآراءهم حيث يقولون : إنّ على الجميع أن يحاكوا الغربيين في أفكارهم حتىٰ يتسنىٰ لهم إكتساب التقدم الصناعي والتكنولوجي منهم . فهم يوجّهون معتقدات الناس ومعارفهم الدينية إلى مثل هذه المهاوي عن طريق التفسيرات والتأويلات التي ما أنزل الله بها من سلطان لكي يطيب عيش الغربيين ويستأنسون بما يقوله أولئك المأجورون مما ينسجم مع ما يريدون ويرغبون .

هذه الكيفية من التفكير أوجدها الغرب في هؤلاء الأفراد الحمقىٰ لأن الكثير من المعارف الإسلامية الأصيلة غير محببةٍ لدىٰ مؤسسي ومحركي المدنيّة الغربية وغير مهضومةٍ ومستساغة عند الشعوب الماديّة الأوروبية منها والأمريكية لذا فهم يوجّهون دُماهم ولُعبهم بهذا الأسلوب الخاطىء لكي يتخلصوا من هذا المأزق ـ وعلى حدِّ قولهم فإنهم بذلك إنما يحفظون إصالة الشخصية الشرقية والإسلامية ! ! !

وفي ذات الوقت يتخلّصون من الأقاويل التي يمكن أن تكدّر أوقاتهم وأيامهم والتي قد تكون في بعض الأحيان مورد إشكالٍ وطعن لهم بالقول والفعل .

لقد طرح الإسلام مواضيع تحت العناوين الآتية «الوحي» ، «المعجزة» ، «الملائكة» وغيرها ، واعتبر وجود هذه الحقائق النورانية الثابتة

بالبراهين والأدلة العقلية المحكمة من صميم العقيدة الإسلامية .

ولكنّ الثقافة الماديّة في أوروبا تصدت لها وفتحت أبواب الانكار والشك في هذه المواضيع وأمثالها مما جعل التابعين للفكر الغربي القابعين في البلدان الإسلامية يوجّهون هذه الحقائق تبعاً للمقاييس والموازين الماديّة الغربية حيث يرون «بأن الوحي ما هو إلاّ تجلّي لشعور ولضمير الباطن للنبي»[١] . ويقولون : «بأن ما جاء به النبي محمد (ص) لا يتعدىٰ أن يكون نبوغاً فكريّاً» . وإنّ «القصد من الملائكة التي تطرّق لها القرآن في أكثر الموارد ما هي إلاّ كناية عن القوىٰ الطبيعية للبشر والتي اكتسبها على طول سعيه عبر الدهور»[٢] .

مثال آخر لهذه الأفكار :

لا شك في إنّ القوانين الإسلامية قوانينٌ محكمةٌ ، وهي ما تضمن بقاء وتقدم الإسلام على طول مسار التاريخ . ومن هذه القوانين «قانون الجهاد» ، والجهاد هذا له وجهان : الأول يسمىٰ الجهاد الدفاعي ويطلق على الثاني التعرّض الإبتدائي وهو جهادٌ قائمٌ على المبادئة من دون تعرّض العدو للمسلمين وهذا يتمّ بعد إتمام الحجج الشرعية والعقلية ، وهذا ما تقرّه الأصول العقلية والأعراف الإنسانية والقوانين الدولية وقضايا التحرر العالمي .

ولكنّ البعض يصرُّ على أنّ الجهاد له جانب واحد ووجه واحد وهو الجهاد الدفاعي فقط ، وإن الجهاد الإسلامي الذي مُورس في الصدر الأول للإسلام ، في زمن الرسول (ص) وعصر الخلفاء الراشدين ومَنْ تبعهم من الخلفاء يرتبط بالدفاع عن حوزة وبيضة الإسلام فقط . لذا فهم ـ أي أذناب

---

(١) دائرة المعارف ـ فريد وجدي مادة «الوحي» .

(٢) المنارج ١/ ٢٦٧ ، ٢٧٤ .

الغرب ـ ينكرون الجهاد التعرضي الإبتدائي بشكل كلّي .

لم يكن الإسلام دين سيف ! .

إنّ أول مِـنْ خّطـط لهـذه الشبهـة هـم المبشـرون المسيحيـون حيـث استنتجوا ذلك خطأً ـ خدمة لمصالحهم الخاصة ـ من قانون الجهاد ، وغزوات الرسول الأكرم (ص) والخلفاء الذين تلوه ودلوا على ذلك وثبّتوه .

وسنتعرض فيما بعد إلى الجهاد الإبتدائي لا بدلل على استخدام الإسلام للسيف لإظهار القدرة والقوة والسلطة ، فإن مثل هذا الإستنتاج خطأ فاضحٌ ، وسنبين فيما بعد الهدف من الغزوات والتي لا تمت بصلةٍ إلى نشر الإسلام بالقوة وفرضه على الناس .

فلا غرابة في الأمر من حصول هؤلاء المستنتجين على مثل هذه النتيجة من قانون الجهاد ، لكنّ العجبَ العجاب يكمن في هؤلاء المخططين لهذه الإستنتاجات والأطروحات المشبوهة التي يرومون من ورائها تبرير إراقتهم لدماء المستضعفين من الشعوب والمستَعْمَرَة ، واحتلال بلدانهم بالقوة ، ولم يقف الحدُّ عند هؤلاء المغتصبين بل تجاوز إلى مقدسيهم وبابواتهم المنزوين عن لهو الدنيا وملاذ الحياة حيث نراهم يلعبون بمقدرات الشعوب مثل هذه اللُّعب الدنيئة لكي يحرفوا أفكار الشعوب الغير مسيحية عن إصالتهم ناهيك عن مدىٰ إنحرافاتهم ـ هم أنفسهم ـ وفسادهم الذي أشاعوه هنا وهناك ، بل وقساوتهم البربرية التي بلغت درجة قساوة المغول والتتار إنْ لم نَقُل بأنها فاقتها[١] .

«الجهادُ أمرٌ فطريٌّ»

إذا ما علمنا بأن حياة أي كائن حيّ بسيط كالنبات مثلاً مرهونة بكفاحهِ

---

(١) الإسلام مذهب النضال والإنتاج ـ ص ٩ .

ضد كثير من العوامل التي تهدد بقاءه ، وإذا ما قبلنا تعريف العالم البيولوجي الفرنسي المعروف «بيشو» للحياة بأنها مجموعة أعمالٍ دائبة الصراع مع الموت وإذا ما عرفنا بأن الموت والإضمحلال والميل نحو النوع المشابه من السنن الطبيعية لظاهرة الحياة . وإن كلَّ ظاهرة تضادد الموت وتعاكس التكامل تعتبر مخالفة للجريان الطبيعي .

حينها يصدق الحديث عن كل ظاهرة إجتماعية وثورة فكريّة (آيدلولوجية) .

حيث تتشابه مع الظاهرة الحياتية الماديّة في الكفاح والصراع من أجل بقاءها . وهي لهذا تحتاج إلى سعي حثيث بدونه لا تستطيع إدامة وجودها ، لأن الإنقلاب الفكري يلحق الضرر بمصالح بعض الفئات المنتفعة ويجرها نحو الخطر مما يدفعها إلى القيام تحت عناوين النضال والمعارضة سواء إرادت ذلك أم أبت وعندها تقع الحرب . وفي هذه الحالة تكون الحرب تحت عنوان «أصل الحياة» لضمان بقاء ونمو ذلك المذهب الفكري .

في الحقيقة لا يمكن إعتبار الدين كأي مذهب فلسفي أو علمي لأن النزاع في المذاهب الفلسفية لا يتعدىٰ دائرة المناقشات اللفظية والمناظرات المنطقية وأحياناً الإنتقادات التحريرية في الوقت الذي يكون فيه الدين جاداً في سحق تمام الأنظمة المتهرئة والعقائد الفاسدة ليأتي بنظامٍ جديدٍ بديلٍ لها ، ومثل هذا الهدف لا يتأتىٰ بدون إشتباك أو حرب .

فأيّ ثورةٍ عالمية أو إقليمية وصلت إلى أهدافها من دون إراقة دماء أو قيام حرب ؟ فهل قامت الثورة الفرنسية بدون مصادماتٍ ومعارك طاحنة ؟ وهل كان عدد الأفراد الذين قتلوا في الثورة الهندية قليلاً ؟ وكذا الأمر في الثورة الروسية التي سحقت أسس النظام القيصري القديم فهل قامت بذلك بدون إراقة الدماء ؟ أم إن استقلال أمريكا قام بدون ذلك ؟ .

فالنهضة الثابتة والثورة المثمرة لشعوب العالم يطيحان دائماً بمطامع الفئات والجماعات الحاكمة ويحرران الشعوب من العقائد والأعراف والممارسات القديمة التي كانت سائدة وهذا لا يُنال إلاّ بالحروب والمصادمات المستمرّة .

الجهاد الأول في الإسلام كان دفاعياً :

يعتقد علماء الحياة ، بأن أساس حياة أي كائن حيٍّ يرتبط بثلاثة أصول :

أولاً : الحصول على الهواء الطلق والغذاء .

ثانياً : النمو والتكاثر لإنتاج المثيل .

ثالثاً : رفض المواد الضارّة والمزعجة الزائدة عن الحاجة ، والسعي من أجل البقاء حتىٰ لو أدىٰ ذلك إلى الصراع والنزاع .

وإن هذه الأصول الثلاثة توجد في جميع الكائنات الحية متطابقة مع البناء الوجودي لها .

ومن الجدير ذكره بأن الرشد والنمو والبقاء لا يمكن استثناؤها من هذه الأصول الثلاثة باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، وإن الرسوخ والتوسع والبقاء يعتبرُ لوناً لجميع الأصول الثلاثة التي تضمن بقاء وحياة الكائن الحيّ الذي لا غنىٰ له عنها . وإذا ما طبقّنا ذلك على الإسلام ـ بعقيدتنا كمسلمين ـ سنجد بأنه ليس ظاهرة اجتماعية بل هو ظاهرة سماوية ودعوة إلهية ولكنّه من خلال حاجته للرشد والنمو والبقاء لا يختلف عن سائر الظواهر الاجتماعية .

ولأن هدفه الأساسي هو الإجهاز على الأفكار الخاطئة والعادات البالية المنحرفة وإجهاضها وتحكيم نظرته في الحقوق والإمتيازات والمقامات وإعادة بنائها على أساس الحق والعدل ، فعليه لا يمكن أن ينجو من تهديد

الفئات ذات المطامع والمنافع الماديّة والشخصية التي تشعر بالخطر القادم مع الإسلام على مصالحها الذاتية إذا ما هيمن النظام الإسلامي على المجتمع وسحق كلّ ما هو بالٍ ومتهريء ورديء وفاسد ويجعلها غير مصونة أمام مسيرة الإسلام التوسعية ، وبذلك يصبح الإسلام عرضة لمخططات هذه الفئات شاء أم أبىٰ .

وفي هذه الحالة يرىٰ الإسلام نفسه مضطرّاً للاستفادة من الأصل الثالث في أحكام سلسلته الدفاعية وإلاّ سُتجهَضُ نطفةُ الإسلام في بداية تكوينها الإصلاحي وفي مراحله الأولىٰ بأيدي تلك الفئات الحاقدة .

وعليه ومن خلال قراءتنا للآية الشريفة الأولىٰ التي نزلت بصدد الجهاد نفهم أن تشريع الجهاد في هذه الآية المباركة كان الجواب الناجح لتّعرضات العدو وتجاوزاته من خلال إجازتها للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم ـ **﴿ أُذِن للذين يُقاتلون بأنّهم ظُلموا وإنّ اللّهَ علىٰ نصرِهم لقدير * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاّ أن يقولوا ربُّنا الله . . . ﴾** [الحجُ ٣٩ ، ٤٠] .

إنّ هذه الآية الكريمة تشير وبكل وضوح إلى أن الدافع الرئيسي لتشريع قانون الجهاد هو الدفاع عن النفس ودفع كل أنواع الظلم والحيف عن المسلمين بعد أن تمركزوا في المدينة .

وهذه الإشارة المهمة نراها جليّة أيضاً في آيات أُخرىٰ نكتفي بذكرَ واحدةٍ منها : **﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين ﴾** [البقرة/ ١٩٠] .

ففي هذه الآيات الثلاث نرىٰ بوضوح أولَ وجهٍ للجهاد وفلسفته التشريعية كردٍّ فعلٍ على أعمال المتحكمين والطواغيت .

نماذج من الجهاد الدفاعي

منذ اليوم الأول لاستقرار رسول الله (ص) في المدينة ، والتفاف الرجال الطيبين الذين قدموا إليه من مختلف الأماكن وشباب الأنصار حوله ، وفي نفس الوقت الذي تبلورت فيه الدولة الإسلامية ككيان مستقل ، تعرّض الإسلام والمسلمين إلى حملات وهجمات من قبل المشركين الذين يريدون القضاء على هذه الدولة الفتيّة .

حيث شهدت المدينة ولمراتٍ عديدة هجوم جيوش المشركين على أطرافها ومحاصرتها مما إضطرّ معه المسلمون بالدفاع عن دينهم وأنفسهم كما حدث في غزوة بدر وأُحد والخندق حيث لم يكن للمسلمين غير مركز المدينة وإنّ كافة الأماكن الأُخرىٰ المحيطة بها كانت تحت النفوذ والسيطرة المشركة مما حدا بالمسلمين الدفاع بقوة وبشدة عن الأرض التي طهّرها الله سبحانه بالإسلام .

فقد كان الغرض الأساسي من ذلك هو إيقاف تقدّم العدو نحو المدينة المنورة .

وقد أطلق الفقهاء على مثل هذا التصدي ومثل هذه الحروب التي كانت دفاعاً عن حق الوجود وحياة الإسلام والمسلمين أو الحروب التي قامت من أجل إحباط وإجهاض عمليات الفئات المشركة والكافرة اسم الجهاد الدفاعي . حيث أن أغلب غزوات الرسول (ص) أو الحملات التي قام بها المسلمون والتي كانت من أجل تدمير وتحطيم التجمعات التي كانت تفكّر في سحق الإسلام في المدينة كانت واقعة تحت عنوان الدفاع عن الأهداف الإسلامية السامية .

أي أن أكثر الحروب التي قامت اعتبرت جواباً محضاً وكردِ فعلٍ لحملات العدو أو نواياه الخبيثة وسحق محاولاته المعادية للإسلام فيَ بداياتها من قبيل التهيئة للهجوم على المدنية أو إعداد العدّة وجمع الأسلحة

وتسليح العدد فتفريق مثل هذه التجمعات يحمل جنبة دفاعية لا غير وكما قيل ويقال بأن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم .

وبناءً على هذه النظرة تصوّر كثيرٌ من أصحاب النظريات والآراء بأنّ جميع أشكال الجهاد ينضم تحت عنوان الجهاد الدفاعي ولا وجود للدفاع التعرضي أو الإبتدائي في الإسلام ، والسبب في ذلك يعود إلى الإستنتاج المعلول لبعض المحللين والمنظّرين لدىٰ تحقيقهم في مثل هذا النوع من الغزوات وإلاّ فالجهاد التعرضي والإبتدائي والذي هو من مسلمات الفقه الإسلامي وصريح آيات القرآن يبدو مستنكراً من قبل هؤلاء البعض من المنظِّرين . . . . وسنوضح مستقبلاً دلائل الجهاد التعرضي الإبتدائي وأسبابه ودوافعه .

مميزات الجهاد الدفاعي :

إن قانون الجهاد وجد له طريقاً في الإسلام لأول مرّة على أنه قانونٌ دفاعيٌّ وقد بيّنت الآية التي سبق ذكرها مّيزات هذا الجهاد وخصائصه ، لذا إرتأينا هنا أن نحقق في هذا الموضوع ونبحثه بصورة مستقلّة .

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبُّ المعتدين ﴾ [البقرة/ ١٩٠] .

لو أمعنا النظر في هذه الآية الكريمة لوقفنا على ثلاث إشاراتٍ للجهاد الدفاعي ولرأينا إجابتها الصريحة وبشكل مباشر على الإشكالات التي قد تدور في أذهان غير المطّلعين ، وهذه الإجابة تفصح عن ميزات الجهاد الدفاعي بالشكل التالي :

١ ـ دافع الجهاد وهدفه : في سبيل الله .

٢ ـ ضد مَنْ تقوم الحرب ؟ ضد «الذين يقاتلونكم» .

٣ ـ ما هي حدود الدفاع ؟ : ولا تعتدوا أي لا تتجاوزوا الحدود غير الدفاعية .

ونشرع هنا بالتحقيق والبحث حول كل واحدة من هذه الميزات التي أحصيناها بصورة إجمالية .

الميزة الأولىٰ : إنّ هذه الآية تفرق وتفصل بين الجهاد الإسلامي وبين حالة التوسّع اللامشروع على حساب البلدان والشعوب الأُخرى ، فالدفاع الإسلامي يقوم على أساس النيّة الصادقة للوصول إلى مرضاة الله تعالى كأي نوع آخر من العبادات التي تأخذ صورتها على أساس صدق النية وعلى هذا فيجب أن يكون العمل الجهادي أو الجهاد الدفاعي خالصاً لوجهه تعالى فلا يجوز أن يخالطه أي دافع دنيوي أو مادي وبمعنى آخر وبشكل أعم فالجهاد الدفاعي يقوم أساساً على إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى وإقامة حكومته العادلة وبناءً على هذا الأساس فلا يوجد مجال أو مكان للدافع السلطوي والنفوذ المادي والتوسع الدولي أو المحلّي على حساب الآخرين ، وقد يفكّر البعض بالتسلّط على ملايين البشر متوهِّماً وواهماً بأن ذلك من صميم الجهاد في سبيل الله ولكنّ حقيقته تنبىء عن نفوذه التوسعي وتسلطه على مئات الآلاف من البشر .

إنّ الجهاد هو نوع من أنواع الحركات الإجتماعية المقدسة والمفيدة لحفظ كيان الإسلام لكسب رضا الله تعالى وعليه ترتفع الحدود بين نوعي الجهاد ـ الدفاعي والتعرضي ـ في هذا الدافع . ولذا يمكن القول بأن الفتوحات التي كانت في زمن رسول الله (ص) والخلفاء من بعده لم يكن دافعها إلاّ حفظ كيان الإسلام أو لرفع الحواجز والموانع التي تقف حائلاً دون إنتشار الدين الإسلامي الحنيف وهذا ما لا يمكن مقايسته بفتوحات الإسكندر المقدوني أو فتوحات الجنرالات الأوروبيين لكون هذه الفتوحات لا تحمل دوافعاً إلهية قط بل دوافعاً شخصية لبسط النفوذ المعنوي وتوسيع قوانين

الباطل حيث قامت أغلب فتوحاتهم على أساس الطمع ونيل الإمتيازات تلو الإمتيازات على حساب المحرومين والمستضعفين من خلال مجازر دموية وحروبٍ إقليمية أو عالمية وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الدوافع بشكل واضحٍ وجميل : ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيلِ الطاغوت** ﴾ [النساء/ ٧٦] .

وأخيراً نذكر بأن الدافع الأساسي للجهاد لا يتعدىٰ رضا الله تعالى وبناءً عليه فلا فرق بين الجهاد الدفاعي والجهاد التعرضي على الرغم من أن البعض من المجاهدين إعتادوا العادات الجاهلية الخاطئة حيث جعلوا دوافع جهادهم هي الحصول على الغنائم والفوز بها وهذا ما ذمّه الله تعالى بآياته التي نزلت بخصوص هذا العمل .

﴿ **تريدون عرض الدنيا والله يُريدُ الآخرة والله عزيز حكيم** ﴾ [الأنفال/ ٦٧] .

الميزة الثانية : إنّ ما نراه في الجهاد الدفاعي من قتال ومحاربة الفئات والأشخاص الذين بدأوا بهجومهم وحملتهم على المسلمين أو كانوا السبب في إندلاع الحروب على المسلمين ، لا نراه في الجهاد التعرضي ، حيث لم يكن شرط الإعتداء والهجوم على المسلمين مبرراً للدفاع ومحاربة المعتدي ، بل تجاوزه إلى رفع جميع الموانع التي تقف في طريق إنتشار الإسلام من أجل تحقيق بيئةٍ حرّةٍ ومجتمعٍ صالح لنشر الأفكار والقوانين الإسلامية العظيمة ولمثل هذا المسوّغ تقوم الحرب حتى ولو لم يكن أهل تلك البلاد أو المنطقة يحملون أفكاراً أو نوايا عدوانية لمحاربة المسلمين .

الميزة الثالثة : وتتعلق بحدود الدفاع المذكورة في الآية ١٩٠ من سورة البقرة والتي تبيّن عدم جواز تعدي حدود العدالة حيث لا ينبغي للبشر أن يقعوا ضحية التفكير في الإعتداء على الآخرين لأن الإعتداء أحد شُعَبِ الظلم ، والجهاد في سبيل الله ينضوي تحت لواء عدالته وبناءً عليه يجب أن

يكون الجهاد في سبيله نزيهاً ومجرّداً من كل أنواع الظلم والإعتداء ، ولا يُشترط هنا أن يكون الجهادُ دفاعياً أو تعرضياً . فالجهادان متساويان في مثل هذا الأمر لأن الجهاد لا يسمح أبداً للمجاهدين بإنجاز أعمالٍ يعتبرها العقلُ والشرعُ تجاوزاً وخروجاً على حدود العدالة .

ولم يكتفِ القرآن الكريم بهذا الأمر بل وسّع دائرة تذكيره بأنّ أيّ ردعٍ يقوم به المسلمون لأي إعتداء عليهم يجب أن يكون مساوياً لذلك الإعتداء في كمّهِ وكيفيته وبعيداً عن الغضب والحقد والإنتقام الذي يدفع المجاهدين إلى الظلم والإعتداء المُنهىٰ عنه ، حيث يقول :

﴿ فمَنْ إعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ [البقرة/ ١٩٤] .

قد يكون هذا المقدار من البحث في الجهاد الدفاعي كافياً حيث جاء دور البحث في الجهاد التعرضي الإبتدائي الذي لا يطيقه البعض كما أشرنا سابقاً .

الدافع من تشريع الجهاد التعرضي الإبتدائي :

إن الدافع من تشريع الجهاد التعرضي الإبتدائي في الإسلام يمكن لمسه بوضوح حينما نقترب من واقع هذا الدين العالمي ونطّلعُ على أهدافه السامية وخططه الحكيمة في إصلاح المجتمع .

إن أساس الدعوة الإسلامية يرتكز إلى أصلين ثابتين لا يمكن أن يخلّىٰ عنهما الإسلام أبداً وهما :

١ ـ تحرير البشر من عبادة كلّ معبود باستثناء الخالق تعالى وفي حقيقة الأمر أن جميع الشرائع السماوية تستند إلى هذا الأصل الثابت فما جاء رسولٌ إلاّ وكانت مبادىء دعوته **﴿ ما لكم من إلهٍ غيرُه ﴾** [الأعراف/ ٥٩] .

لقد صرَّح الإسلام بعدم وجود معبود في صفحة الحياة الدنيا غير الله وإنه تعالى ربّ الأرض والسماء ﴿ **وهو الذي في السماء إلهٌ وفي الأرض إله** ﴾ [الزخرف/ ٨٤] .

٢ ـ يجب أن تكون الأرض مركزاً للحكومة الإلهية ، بعيدة عن القوانين الوضعية والشرائع والإرادات البشرية حيث لا مكان إلاّ لقوانين الله وشرعته ومنهاجه وإرادته التي يجب أن تكون حاكمة على الإرادات والأفكار والقلوب البشرية . وإن أيّ حكومةٍ وأي تشريع أو قانون لا يستلهم موادّه من القوانين السماوية سوف يكون لاغياً وغير فعّال . وبما أنّ الإسلام اعترف ويعترف بجميع الكتب والشرائع السماوية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون فإنه يرفض الإنحرافات التي حصلت في الأديان السماوية السالفة نتيجة التلاعب بالأفكار والرغبات المستندة إلى المنافع المادية البحتة ويَعْتبِرُ هذا الإنحراف أصلاً نوعاً من أنواع العبادة الضالة حيث نبّه الرسول الكريم (ص) أهل الكتب السماوية إلى مثل هذه الإنحرافات فقال كما أُنزل عليه من القرآن الكريم في آيات المباهلة : ﴿ **ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾ [آل عمران/ ٦٤] . ومن المؤكد بأن اليهود والنصارى لا يعبدون أحبارهم ورهبانهم ولكنهم بإطاعتهم لهم وإلتزامهم بنهجهم المحرَّف عن القوانين الألهية وفق الأهواء والرغبات والمصالح الخاصة أُعتبر عملُهم العبادي وفق نهج الأحبار والرهبان نوعاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى . فعندما جاء عدي بن حاتم الطائي إلى رسول الله (ص) كان يعلقُ في رقبته صليباً فلما رآه الرسول (ص) قرأ : ﴿ **إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ [التوبة/ ٣١] . . فامتعض عدي بن حاتم وأجاب بشيءٍ من الاعتراض قائلاً : نحن لا نتخذ أحبارنا ورهباننا أرباباً من دون الله ، فأجابه الرسول (ص) : أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه ، ويحلّون ما أحلّ الله فتحلونه ؟ فقال : بلىٰ ، قال : فتلك عبادتهم واتخذوا المسيح إلهاً من دون

الله ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ . «مجمع البيان ـ ص ٢٤» .

هذان الأصلان الثابتان في الإسلام يدخلان ضمن تأمين سعادة البشر ، ولن يعدل الإسلام عنهما بأيّ ثمنٍ وبأيّ شكلٍ من الأشكال ولا ينكرُ أحدٌ الفوائد المترتبة على إقامة هذين الأصلين ولا الآثار السلبية المترتبة على نكرانهما وتعطيلهما ومن الجدير أن أذكر حدثاً تاريخياً يمكن من خلاله توضيح ما نصبو إليه من تبيان أهمية وحساسية هذين الأصلين الأساسيين :

عندما حاصر المسلمون الأمبراطورية الفارسية آنذاك طلب رستم قائد القوات الفارسية من سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش الإسلامية وقتذاك أن يرسل إليه مبعوثاً يطلعه على الهدف والدافع من الجهاد الإسلامي والذي لم يكن في نظره غير هجوم واعتداء على مملكته ، فحصل على ما أراد وجاء المبعوث إليه ليشرح له الدوافع والأهداف فقال : جئنا لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام[١] .

وعلى الرغم من أن رستم قد تحدث إلى المبعوثين الثلاثة كلٍ على إنفراد فإنه توصّل إلى أن أحاديثهم جميعاً تتطابق في نقطةٍ واحدة ألا وهي : ما إن يقبل رستم بهذين الأصلين حتى يرجعوا عن تفكيرهم في احتلال بلاد الفرس . والأصلان هما : تحرير عباد الله من ربقة الإستعباد ، وتحكيم ركائز الإسلام في البلاد الفارسية .

من المنفذ لهذين الأصلين ؟

مما لا شك فيه أن هذين الأصلين لهما من يخالفهما في مختلف نقاط العالم وتحت مسمّيات وعناوين مختلفة ، فالحكومات الباطلة والمنظمات الماديّة تعمل جاهدةً على محاربة هذين الأصلين وتوسّعُ من رقعة مخالفتها

---

(١) الكامل . ج ٢/ ٣٤١ .

لهما في الوقت الذي نرىٰ فيه إرتباط الناس بهما عن طريق التقييد والالتزام بمبادىء وقيم وعادات وسيرة أوليائهم وصالحيهم وهم بهذا يمنحون هذين الأصلين قوة ومناعة دون تأثير القلم والبيان .

ما هو التكليف الإسلامي تجاه هذين المانعين العظيمين ؟ .

فلو كان الإسلام مذهباً فلسفياً أو طريقةً كلاميةً أو فكراً سياسياً محضاً أو منهاجاً جزئياً من أجل تنظيمٍ ، أو عرقٍ أو . . . لما فكّر بكسرِ طوقِ هذه الموانع من المنظمات المادية التي تشكل حائلاً دون تنوير الناس وتعليمهم دينهم بل يكفيه أن يكتب جميع أفكاره وخلاصة دعوته على صفحات الورق ويردّ على المشككين من المحافل العلمية والسياسية ، ثم إنّه لا يهتم لقبولٍ أو رفضٍ .

وبما إنّ الإسلام خلافاً لنظريات خبراء الشرق الأوسط ومن خلال نظرياته ونظامه الإلهي الجديد الواقع في حوزة الأصول والنظم السماوية السليمة والتي تهدف إلى إحتلال مكان النظم البشرية الفاسدة فلا يمكن له أن يضع يده اليمنىٰ فوق اليسرىٰ ويجلس دون عمل وينتظر الحظ والفرج والبخت ورغبات مخالفيه الباطنية .

لقد أخطأ مخالفوا الإسلام عندما تصوروا إن النظرية الإسلامية تتشابه ونظريات سقراط وأرسطو أو فرضيات العلماء التي تدّعي بأن صاحب النظرية عليه أن يوجّه أفكار المحافل العلمية نحوِ نظريته بعيداً عن استخدام السلاح الذي يعتبر حمله غير صحيح من قبل المنظّر .

إنّ هذا التصور خاطىءٌ ، لأن رسول الله (ص) وهو مبعوث الله تعالى إلى البشرية جمعاء من أجل نجاتهم من الفساد وتطهيرهم من عبادة الأوثان على أرضه وليحكّم أسس الحكومة الألهية التي لا يجوز لأحدٍ غيره أن يحكّمها ويقيمها لبسط قانون العدالة والمساواة على وجه المعمورة إمتثالاً

للأوامر الألهية التي لا يمكن لأحدٍ أن يتجاوز حدودها تحقيقاً لمطامعه الشخصية ومقاصده الذاتية الأنانية . ومن أجل أن يعمل المسلمون على نشر أفكار دينهم الحنيف عليهم أن يزيلوا . جميع العقبات التي تقف حائلاً دون نشر الأفكار الإسلامية ولذا أصبح من الواجب عليهم ضرب المنظمات والأفكار الماديّة والأنظمة البشرية الفاسدة حتى يأخذ الفكر الإسلامي طريقه إلى الإنتشار .

وبناءً على هذا ، فإن الحرب التي تقوم تحت لواء الجهاد في سبيل الله لا تلزم الناس بالإيمان القهري أو الإعتقاد الجبري ، لأن الإيمان والإعتقاد من الأمور التي تدخل ضمن القناعات النفسية ، والأمور النفسية تحتاج إلى قناعة في المبادىء العقيدية التي لا يمكن بدونها جرّ الإنسان إلى العمل بها والإنصياع لها .

أسئلة تنتظر أجوبة :

١ ـ هل يمكن اعتبار إخراج البشر من عبادة الأصنام وعبادة غير الله خلافاً للعدالة ؟ وخلافاً للحرية التي يسعىٰ المصلحون في العالم من أجل إقرارها أينما وجدوها ؟ .

٢ ـ هل تكفي قوة البيان والقلم لوحدها لنشر وترويج أفكار المذاهب الإصلاحية العالمية التي تهتم بجميع شؤون الناس ؟ .

٣ ـ هل يكون الأعلام منطقياً في غير البيئة الحرّة التي يكون الناسُ فيها أحراراً في عقائدهم ، وهل يكون لهم تأثيرٌ في مجتمعاتهم ؟ .

٤ ـ هل كان حكم الجهاد مقتصراً على زمن الرسول (ص) أم إنه حكمٌ خالدٌ ساري المفعول من بعده ؟ .

٥ ـ ما هي كيفية الجهاد في عصرنا الحاضر ؟ .

سنجيب على تلك الأسئلة جميعها وتحت دلائل وأرقام رياضية :

١ ـ الجهاد وقضية الحريّة :

إنّ الحريّة غير المقيدة وغير المشروطة لا يمكن أن تنسجم مع منطق العقل ، لكونها تستند على شرطين أساسيين يكون أحدهما مقبولاً عند العالم الغربي أيضاً . . .

ا ـ **الشرط الأوّل** : هو عدم التعرض بكل شكل من الأشكال إلى حرّيات الآخرين . وهذا الشرط مقبولٌ لدىٰ جميع عقلاء الدنيا .

٢ ـ الحرية مشروطة بسعادة الفرد ـ وهذا شرطها الثاني ـ :

وعليه فقد سعىٰ الأنبياء لإخراج الناس من عبادة الأصنام والأوثان وشرب الخمر ولعب القمار وغيرها ولم يسمعوا صرخات البعض القائلة : «إتركونا وما نريد ، إننا نبغي الشقاوة» .

إن لفظ الحريّة مقدسٌ ومغري ولكنّ المطلقة منها والغير مقيدة بشرط مفسدة للمجتمع وللفرد على السواء ، بل ينبغي لكل نوع من أنواع الحريّة أن يطوّق بهذين الشرطين اللذين تعرضنا لهما حتى تصبح مجازةً .

إن كلمة الحرية غالباً ما تخدعنا ولكنّ الذي يجب أن يُحسبَ حسابه هو : هل إن كلّ نوعٍ من أنواع الحرية لا يجلب الضرر للآخرين يُعدّ حسناً أو إن الحرية المتأطرة بإطار المصالح الخاصة هي الحسنة ؟ .

فعلى سبيل المثال : إذا تفشّىٰ مرض الجدري في منطقة ما ولأجل القضاء على هذا المرض فإنّ وزارة الصحة في ذلك البلد ستقوم بإرسال فريقٍ طبي لزرق الأهالي بالمصل المضاد لمرض الجدري كما ستقوم وزارة الأعلام من أجل توعية الناس وشحذ أذهانهم وتبيان خطورة هذا المرض وفائدة التلقيح ضده باستخدام أجهزتها الإعلامية المتوفرة لديها كالاذاعة والتلفزيون

والصحف والمجلات وغيرها لهذا الغرض ولكنّنا ، وفي خضمّ هذا الإعداد الصحي والإعلامي نرىٰ بعض الأفراد وعلى أثر جهلهم يمتنعون عن التلقيح أنفةً وعناداً وما شابه ، وعليه فإن وزارة الصحة ستضطر إلى الإتصال بالأجهزة الأمنية لإجبار هؤلاء الممتنعين والمعاندين على التلقيح بالقوة والإجبار .

وهنا نسأل : هل هناك مَنْ يعترض على مثل هذا التلقيح الإجباري ؟ .

وهل يمكن اعتبار هذا التلقيح الإجباري خلافاً للعدل ؟ .

أم يعتبر ذلك نوعاً من أنواع الخدمات الصحيّة لأولئك المتمردين وللمجتمع بشكل عام ؟ .

إن هذا المثل ضربناه لتقريب فكرة الجهاد التعرضي الإبتدائي إلى الأذهان فالذين يرون هذا الجهاد مخالفاً للحريّة ويرضون بعبادة الأصنام ووقوف الإنسان أمام الحجر والطين أو الخشب والنار والإجرام السماوية المشعة والبراقة وغيرها من المعتقدات الفاسدة هل يرضون بإنحراف الإنسان عن المسيرة الصائبة للفطرة والعقل الأنساني ؟ وهل يوجد إنحرافٌ أكثر من وقوف الإنسان أمام الموجودات الفاقدة للإحساس والشعور والتي هي من صنع يده جاعلاً منها آلهةً يعبدها من دون الله ؟ إنه الإنحطاط الفكري والارتباط بالخرافات والموهومات التي هي كالسلسلة المحيطة بالفكر الإنساني من خلال ظاهرة تعدد الآلهة الصناعية التي تؤدي بدورها إلى ظهور اختلافات اجتماعية تنحدر بالفضائل الإنسانية السامية والسجايا الأخلاقية الكريمة إلى حيز الفناء والانتهاء .

وعليه فقد حاول الرسول (ص) وعلى طريق الحرية من منع عبادة الأصنام بالوسائل المختلفة ناهيك عن سحق الفئات التي تقف حائلاً دون هدم وتحطيم الأصنام من المستفيدين والمنتفعين أو بعض الحمقىٰ الذين لا

يفرقون بين الحقّ والباطل والذين اعتبروا هذه الخطوة مخالفة للحرية وأصولها .

إنّ إحدىٰ وظائف المسلمين بعد فتح مكة هي ذهابهم إلى أطراف الحجاز لتحطيم بيوتات الأصنام على رؤوس أوثانها ، وعند الفتح كان قد أُعِلَنَ «أن من كان في بيته صنم فليحطمه»[1] .

٢ ـ محدودية تأثير القلم والبيان :

إن تأثير القلم والبيان يبقىٰ محدوداً مهما كان ، وبلا شك في أن القلم والبيان ـ يمكن اعتبارهما سيفين قاطعين ـ تمكنا من تسوية الكثير من الموانع الفكرية والوهمية لأجل أن يجد المذهب السوي والسليم له سبيلاً إلى الإنتشار وإيصال الأفراد الذين لهم استعداد على تقبّل الحق إلى جادة حقيقة القيادة الحكيمة من خلال الحوار والحديث عندما يطلبون ذلك . وقد ذكر لنا التاريخ بعض الشواهد التي هي من صميم الإسلام حيث أن بعض المشركين كانوا يطلبون من قادة المسلمين بأن يسمحوا لهم بالاستماع إلى آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ص) وأحكام الإسلام فيوافق القادة على طلبهم ويمنحونهم الأمان عند الإستماع وحتى عودتهم إلى قومهم وإن لم يدخلوا في الإسلام وبقوا على دينهم وقد تعرض القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فقال بصريح الآية : ﴿ **وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون** ﴾ [التوبة/ ٦] .

إن التفات القرآن الكريم إلى أهمية القلم والبيان بالشكل وبالقدر الذي جعله يضمّ بين دفتيه سورةً خاصةً باسم «سورة القلم» ناهيك عن أوّل نداء قرآني نزل به جبريل الأمين (ع) على الرسول (ص) كان يحمل تذكيراً وتأكيداً على أهمية القلم والعلم والبيان والتي استمر الرسول (ص) يتحدث عنها

(١) سيرة ابن هشام ج ٢/ ٤٣٦ .

ويهتم بها على مدىٰ حياته الشريفة .

بل كان يرسل الكثير من أصحابه من ذوي المقدرة والاستطاعة على البيان لإيصال الكلمة الرفيعة والتعاليم الإسلامية السمحاء التي استلهموها من قائدهم (ص) إلى بقية أرجاء الجزيرة العربية وعن هذا الطريق تمكّن (ص) من إفهام الأشخاص المستعدين روحياً لتقبّل حقيقة قيادة الإسلام للأمة .

ولكنْ ينبغي أن لا نغفل مسألة مهمة ألا وهي : إن تأثير القلم والبيان يبقىٰ محدوداً جداً إذا ما قيس باستخدام القوة المجبرة والقاهرة لنشر الإسلام لأن إقبال الناس وتقبلهم للحق والصلاح متفاوت وقليل ، لكون الكثير منهم تطبّعوا على عاداتٍ موروثةٍ وتقاليد بالية فاسدة آلت إليهم من آبائهم الأولين ، إضافةً إلى أن البعض منهم يُصرّ على بقائه على ضلاله القديم ولا ينفع معه عشرات البراهين المنطقية لجذبه إلى جادة الهداية ولا يتأتىٰ ذلك إلّا باستعمال القوة القهرية لكي ينتهي عن تلك الممارسات والعادات القبيحة .

. وهنا نقف على حقيقة إحد الدوافع للجهاد التعرضي الإبتدائي من خلال حديث الرسول (ص) والذي جاء فيه :

«الخير كلُّه في السيف ، وتحت ظل السيف ولا يقيم الناس إلا السيف»[1] .

٣ ـ تأثير البيان في البيئة الحرّة :

لنفرض بأن الاستعداد لتقبل الحقيقة موجودٌ لدىٰ أغلب الناس غير إنّ الاستفادة من هذا التقبّل مرهونة بالبيئة الحرّة التي يكون فيها الناس أحراراً في طرح الأفكار والآراء والاستماع إليها واعتناقها ، فالبيئة التي لا يكون فيها

(١) وسائل الشيعة/ كتاب الجهاد : الباب الأول ـ الحديث رقم ١ .

المتحدث حرّاً في بيان أفكار والسامع واقعٌ تحت تأثير الخوف وسيطرة الأوهام والخرافات لا يتأتىٰ للطرفين الوصول إلى النتيجة المرجوة . ففي كلِّ مجتمع تُسيطر عليه فرقة تتبنىٰ سلسلة من الخرافات والإنحطاطات الفكرية التي تعود عليها بنفعٍ ماديٍّ وتساعدها على إرتقاء المناصب والمواقع العليا ، فإن هذه الفرقة تشعر بأن المذاهب الجديدة وخاصة التي جاء بها الأنبياء والرسل تهدّد سلطانها بالخطر وإنّه معرضٌ للزوال مع وجود مثل هذه الرسالات الإلهية لذا فإن مصلحتها تقتضي الوقوف في وجه هذه الرسالات والمذاهب ومنع إنتشارها وإتساع رقعتها بكلّ ما أوتيت من قوةٍ وبأس شديد وبأيّ ثمنٍ كان ولن تسمح لأحدٍ بسحب البساط من تحت أقدامها ليصبح حرثاً خصباً للأفكار الجديدة الحقّة التي جاء بها الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم .

وقد سمع الجميع وعرف من خلال الروايات المتواترة عن كيفية التعذيب ومدىٰ شدة الأذىٰ الذي لاقاه المصلحون والمنادون بالحريّة والحقيقة أثناء تأدية واجباتهم المقدسة على طريق بيان الحقائق ، كما علمنا وعرفنا كيف كانت الرسالة الإسلامية ورجالها الأوائل من صنوف التعذيب بل كانت الإغتيالات تتمُّ في قلب الليالي الحالكة بأمرٍ من كبار المشركين ومتنفذيهم من رؤساء العشائر وقادة القبائل الذين كانوا من عبدة الأصنام والاوثان وكانوا لايريدون أن يفهم الناسُ حقيقة أوضاعهم المزرية وعندها ينفرون منهم ويتخلون عنهم ويتركونهم فرادىٰ لوحدهم ، وقد روىٰ لنا التاريخ حادثة تعذيب أبي جهل لأسرة عمّار بن ياسر وكيفية استشهادهما بطعنات أبي جهلٍ لياسر بن عامر وسميّة اللذين فارقا الحياة على أثرها ، لكونهما من دعاة الإسلام والحرية والحقيقة ، ومثلها رواية أخرىٰ عن تعذيب أمية بن خلف لبلال الحبشي الذي كان هو الآخر داعيةً للإسلام .

القتل الجماعي لدعاة الإسلام :

إنّ التاريخ أكبر مختبر للحياة ، وبمراجعةٍ مختصرةٍ وسريعة للتاريخ نستطيع إثبات هذه الحقيقة القائلة بأنه : ما لم ترافق القوة المسلحة الدعوة في عملها التبليغي فإن أرواح المبلغين تهدد بالخطر الداهم ، وما لم يستفد الدعاة من القدرة المسلحة فإن رسالتهم تبقىٰ في مهب رياح الفشل إضافة إلى أرواحهم المعرضة للإعتداء والقتل .

ولقد ذاق رسول الله (ص) مرارة هذه الحقيقة مرتين في تاريخ العشر سنين التي قضاها في المدينة ؛ ففي السنة الرابعة للهجرة ، حيث لم تكن كافة أرجاء شبه الجزيرة العربية خاضعة تماماً لسيطرة الدولة الإسلامية الفتيّة في المدينة المنورة ، بل ما زالت بعض الأرجاء تحت السيطرة المشركة ، استشهد أربعون داعيةٍ إسلامياً في منطقة «بئر معونة» على أيدي المشركين . وكانت المرّة الثانية هي تلك التي تفرّد فيها المشركون بستةٍ من معلمي القرآن ودعاة الإسلام ممن كانوا يعلّمون القرآن في أطراف الجزيرة العربية فقتلوهم ومثّلوا بجثثهم .

إنّ هاتين الحادثتين التاريخيتين وعشراتٍ من أمثالهما يمكن أن تُدلِلّ جميعها على أنّ عدم سعي الإسلام لإزاحة الموانع والمعرقلات والحواجز عن طريق رسالته ودعوته أولاً سوف يؤدي به إلى الفشل الذريع لو استمرت هذه الحواجز والموانع في البقاء مما تسبب في نقص أعداد الدعاة وقتل ما تبقىٰ منهم .

ولكنّ البيئة التي حُررّت بقدرات عسكرية وطُهّرت بقوةٍ مسلحة يمكن أن يمارس فيها التبليغ والدعوة للإسلام بشكل سليم وطبيعي وبدون خوف أو حرج إضافةً إلى أن الذين يجدون في أنفسهم أستعدادات كامنة وقابليات متفتحة لتقبّل الحقيقة الإسلامية أن ينظمّوا ويعتنقوا الشريعة الإسلامية ونظامها العادل علاوةً على أن الذين لا يرغبون بالإنضمام والإعتناق يمكن لهم أن يعيشوا تحت لواء الإسلام وفق الشروط والإلتزامات التشريعية لقانون

الدولة العام من عدم إبداء الأذىٰ والإعتداء على الآخرين ورفع ما يترتب عليهم من دفع الضريبة والجزية ومقابل ذلك تتولى الدولة حماية أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وهنا يتجلّىٰ مفاد الآية التي تقول : ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ [البقرة/ ٢٥٦] .

يقال : «أنّ للحقيقة يداً ورجلاً ، وهي لا تحتاج إلى قدرات عسكرية مسلّحة» . . . هذا يصحُّ فيما إذا خلتْ الساحةُ من العناصر المخربة وبغير ذلك فكل حقيقةٍ يمكن وئدها في مهدها .

وإذا كانت هذه المقولة صالحة مع كلّ الشروط ، حينها يجب على كل الناس أن يقولوا «لبيك» لنداء الحقيقة ، وهذا لم يحدث ولم نشاهده على أرض الواقع من ابتداء البشرية ولحد الآن بل إن خلافه هو الذي كان وما زال قائماً .

٤ ـ هل إنّ الجهاد قانونٌ دائم ؟ :

هل إنّ قانون الجهاد لا يتعدىٰ عصر الرسالة ؟ وبعد ذلك العصر ألا يوجد لدينا قانونٌ للجهاد ؟ أم أنّ هذا الأصل الحياتي فريضةٌ ثابتةٌ جاء بها القرآن الكريم لتبقىٰ ـ على مرّ الدهور والعصور ـ حيّةً مع وجود عوامل التخريب والدمار . وهل أن القول القرآني : ﴿ **إنّ الله يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيانٌ مرصوص** ﴾ [الصف/ ٤] .

لا ترتبط إلّا بجهاد المسلمين في صدر الإسلام فقط ؟ أو أن تعاليم الإسلام الساميّة والضامنة لبقاء كل نوع من أنواع الثورات والإنتفاضات الآيديولوجية مرتبطة بكافة العصور ؟ .

وإن المسلمين وفي أيّ بقعةٍ من بقاع العالم عليهم أن يقفوا صفاً واحداً بمواجهة كلِّ العوامل التي تهدد كيان واستقلال وعظمة الإسلام ، أو تقف حائلاً في وجه تلك القوىٰ التي تمنع إنتشار الدعوة الإسلامية المباركة بكل

حزم وشدة وصلابة .

لقد شرّع الإسلام العظيم قانون الجهاد من أجل إقامة هذين الأصلين اللذين هما أساس سعادة البشر :

١ ـ عبادة الله . ٢ ـ إقامة واستقرار الحكومة الإسلامية .

وقد جاهد المسلمون من الرعيل الأوّل للإسلام بأموالهم وأرواحهم من أجل توسيع رقعة هذين الأصلين الجغرافيّة والعملية على حدٍّ سواء ، حيث أن الإسلام لا يريد بقاء واستقرار هذين الأصلين فقط في عصر الرسالة بل يريد تخليص البشرية على مدىٰ الدهور والأزمنة من مخالب العبودية ومظالم الحكومات التي لا تمت إلى القوانين االإلهية السمحاء بصلة ، يريدُ الاسلام للمسلمين ان يكونوا وفي كل مكان وزمان جنوداً أوفياء لحفظ هذين الأصلين واعتبر ذلك عليهم واجباً شرعياً ينبغي لهم أن يقبلوه ويتحملّوه بكل رحابة صدر .

إنّ أصل كل ظاهرةٍ اجتماعية أو ثورة فكرية لا يمكن أن يبقىٰ بدون جهادٍ ضد العوامل المضادّة ولن تدوم النهضات بدون جهادٍ ثابت ومستمر ومتزايدٍ لكي تتمكن من إدامة حياتها وبقاءها ، وإنّ للدعوة الإسلامية حريَّةٌ بتلك المجاهدات لأن بقاءها وثباتها واستمرار وجودها يحتم عليها وجودُ قانونٍ مثل قانون الجهاد في شريعتها الإلهية الحقّة .

٥ ـ كيفية الجهاد في عصرنا الحاضر :

إنّ السؤال الخامس يرتبط بطريقة الجهاد في وقتنا الحالي ، ولا يسعنا هنا أنّ نتوسع في الحديث عن شريعة الإسلام اليوم وتهديد القوىٰ الاستعمارية العالمية لها ورغبة الطواغيت في بقاء الدول الإسلامية على جهلها وتخلّفها وتطاحنها فيما بينهم وابقاءها مستهلكةً للمواد المصنّعة في البلاد الأجنبية حتى تبقىٰ منقادةً إليها ما فتىء الدهر .

ومن أجل تعويض الماضي بمستقبل مشرقٍ ينبغي على المفكّرين والقادة الإسلاميين وبإلهام من القرآن الكريم أن يعتصموا بحبل الله ويتفقوا على الأسس المشتركة من أجل حفظ هذه الوديعة الإلهية وقطع أيدي الأعداء ورفعها عن المقدسات والأراضي الإسلامية في وقفةٍ واحدةٍ ثابتة .

إنّ العالم الإسلامي يربو على المليارد نسمة ويمتلك من الموارد المهمة الطبيعية منها والصناعية ، والثروة الفكرية والذخائر الإنسانية والخبرات الفنيّة التي تمكنه من كسب الكفّة الراجحة في الميزان العالمي للسياسة الدولية حيث يستطيع أن يؤثر مباشرةً في حل المسائل العالمية ولكن للأسف نقول إنّ عوامل الإختلاف وجدت لها سُبلاً في مختلف المظاهر الحياتية الإسلامية مما يستحيل أو يصعب معها على أقل تقدير الإستفادة من مثل هذه الإمكانات والقدرات الهائلة . إنّ الوحدة والوفاق وإيجاد الروابط والعلاقات السليمة بين المسلمين كلها وبمجموعها تعتبر الحجر الأساس لكل نوع من أنواع الجهاد الدفاعي والتعرضي وإذا ما غابت هذه المسائل عملياً فإنه ليس من الممكن إنجاز الجهاد التعرضي فحسب بل لن يُستطاع أيضاً حفظ شؤون وأصول الإسلام في الداخل .

وفي الدرجة الثانية تأتي مسألة تقوية البنية الإقتصادية ورفع مستوى المعيشة للشعوب الإسلامية من خلال تقوية الإمكانات وتوسيع المشاريع التي تساهم في هذا الانعاش الاقتصادي وخلق شعبٍ إسلاميٍّ أغنىٰ من الشعوب الأجنبية ومكتفٍ ذاتياً غير محتاجٍ لمساعدات وقروض الصناديق الدولية .

إنّ تقوية البنية الإقتصادية في واقعه جهاد بالمال إلى جانب الجهاد بالنفس وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا بقوله :

﴿ **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله** ﴾ [التوبة/ ٤١] .

ومن المؤكد أنّ حدَّ الجهاد في وقتنا الحاضر لا يمكن حصره في هذه النقطة لأن تقوية الثقافة العامة والإسلامية والإهتمام بأجهزة الدعوة الإسلامية بأشكالها المختلفة هو نوع آخر من مصاديق السعي لحفظ أصول الإسلام وعظمته وقد قال الإمام الهمام علي (ع) : «الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله»(١) . وهل أن الجهاد اليوم باللسان إلاّ تقوية الأجهزة الإعلامية وتربية وإعداد المحدثين المتمكنين والكتاب المتمرسين ؟ .

جهادٌ من دونِ حرب :

إن التشريع الإسلامي اعتبر الجهاد في سبيل الله من موجبات بقاء كلّ موجود حي وعدّه أصلاً حياتياً ، وقد أسهب القرآن المجيد في ترديد لفظة الجهاد أو إحدى مشتقاته «جاهدوا يجاهدون ـ المجاهدون . . .» ليفهم البشرية بأن الجهاد في الإسلام هو السعي في شتىٰ مجالات الحياة لنشر قانون التوحيد وتحطيم الأصنام والآلهة البشرية والمادية والمصنّعة وإقرار الحكومة الإلهية على جميع أرجاء الكرة الأرضية ، فلا حرب ولا قتل ولا إراقة للدماء ، فإذا ما جاء اليوم الذي يدعو فيه العدو للمبارزة تصدىٰ له المسلمون وأزاحوه من علىٰ وجه البسيطة .

وبناءً على هذا فإن كلّ سعيٍ ومحاولةٍ وفعاليةٍ تساهم مساهمةً فعالةٍ ومؤثرةٍ في نشر الإسلام وتجديد وإعادة عظمة المسلمين يمكن أن تدخل ضمن دائرة المصاديق الواقعية للجهاد ولا يمكن لأحدٍ تحديد الجهاد الإسلامي وتأطيره بأُطُرٍ خاصة .

كان هذا بحثاً مكثفاً عن الجهاد ، والأمل كلّهُ في أن نجد فرصة أُخرىٰ للتوسع في هذا الموضوع إن شاء الله تعالى .

---

(١) نهج البلاغة ـ رسائل رقم ٤٧ .

٥ ـ المجتمع الفاسق المؤذي

﴿ وإذا قال موسى لقومه يا قوم لِمَ تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغو أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [الصف/ ٥] .

موسى بن عمران هو أحد الرُّسُل من أولي العزم الذي كرّس حياته وأعماله لمحاربة عبادة البشر للبشر وكل أنواع العبادة لغير الله تعالى فكان مورد عناية القرآن الكريم حيث ورد ذكره في الآيات المباركة «١٣٦» مرّة لأهميته الجليلة القدر وجهاده وكفاحه العظيمين ، فقد تولّت «٣٤» سورة «٣٣» من سور القرآن ذكر اسمه وتاريخ حياته وجهاده وأحاديثه بأشكالٍ مختلفة ، بشكلٍ مفصّلٍ تارةً وبصورة إجمالية تارةً أُخرىٰ وإنّ القسم المهم من قصص القرآن ترتبطُ حوادثه بحياة موسى (ع) إبتداءً من حوادث زمن الطفولة والشباب وجهاده ضد فرعون وسعيه ومحاولاته لهداية وقيادة بني إسرائيل والتعب والنصب الذي عاناه وتحمّله في هذا الطريق . فلو كان موسى (ع) معروفاً بين شعوب العالم بعظمته وإخلاصه وحقيقة عبادته لعُرِفَ بنو إسرائيل من خلال شهادة التاريخ الصحيح ومتون الكتب السماوية بعنادهم وجدالهم وتشكيكهم في أبسط وأوضح الأمور وعدم إلتزامهم بتشريعات الحلال والحرام وأيذائهم الأنبياء والرسل إلى درجة قتلهم وإراقة دمائهم .

وعلى الرغم من أن بني إسرائيل يعلمون جيداً بأنّ موسى بن عمران (ع) رسول الله إليهم وإنهم شاهدوا جميع معجزاته وآيات نبوته ودلائل رسالته ولمسوا هذه الحقيقة من خلال نجاتهم به وتخليصه لهم من فرعون وجنوده بعد أن مدّهم الله تعالى بالقوىٰ الغيبية التي ساعدتهم في عبور

البحر وإغراق فرعون وجنوده نرىٰ قسماً منهم يسجدون للأصنام ولا يسجدون لله الواحد القهّار ، وعندما يسألهم موسى (ع) عن سبب ذلك يجيبونه بكل وقاحة : ﴿ **إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ قال إنّكم قومٌ تجهلون** ﴾ [الأعراف/ ١٣٨] . وبعد ذلك خاطبهم موسى (ع) بقوله ـ كما ورد في الأسلوب القرآني : ﴿ **قال أغيرَ اللّهِ أبغيكم إلهاً وهو فضّلكم على العالمين * وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم** ﴾ [الأعراف/ ١٤٠ ، ١٤١] .

لقد تحمّل موسى (ع) من بني إسرائيل أذىً كبيراً ، فعندما دعاهم للجهاد ومقاتلة الظالمين الذين يقطنون الأرض المقدسة (الشام وفلسطين) مع وجود الوعد الإلهي بنصرهم إنْ هم أخرجوا الظالمين من الأرض المقدسة وإنها ستؤول إليهم لا محالة فأجابوه بقولهم : ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون** ﴾ [المائدة/ ٢٤] .

«القصد من الأذىٰ»

يمكن أن يكون القصد من الأذىٰ في الآية غير الأذىٰ الذي يفهم من ظاهر الآية ومجرىٰ الحديث ، لأن الله تعالى أشار إلى إيذاء آخر في سورة الأحزاب فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوه موسىٰ فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً** ﴾ [الأحزاب/ ٦٩] .

إن المفسرين وبصدد توضيح هذا الإيذاء الذي جاءت بعده التبرئة الإلهية ذكروا ـ كما جاء في مجمع البيان ج ٤/ ٢٧٢ ـ إن موسى وهارون صعدا الجبل فمات هارون فقال بنو إسرائيل : أنت قتلته ! فأمر الله الملائكة فحملته حتىٰ مرّوا به على بني إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته حتى عرفوا

أنه قد مات فبرّأه الله من ذلك . . .

ويقال : أن قارون استأجر مومساً لتقذف موسى بنفسها على رؤوس الملأ والأشهاد ، فعصمه الله تعالى من ذلك ، وأنهم آذوه من حيث إنهم نسبوه إلى السحر والجنون والكذب بعدما رأوا الآيات .

إنّ الآية مورد بحثنا إضافةً إلى طرحها للأذى الملحق بالأنبياء من قبل الذين آمنوا فإنها تواسيهم سلام الله عليهم وتشير إلى أنهم كانوا عُرضةً للأذي في زمانهم وقد كرر القرآن مثل هذا عدّة مرات وفي آياتٍ متعددة فقال مثلاً في سورة الأنعام : ﴿ **ولقد كُذبِّت رُسُلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصُرنا** ﴾ [الأنعام/ ٣٤] . وفي آية أُخرىٰ من السورة نفسها جاء : ﴿ **وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدّواً شياطين الأنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ غروراً** . . . ﴾ [الأنعام/ ١١٢] .

ولا يخفىٰ على أحد أن قول الحق وحكومة العدل والإنصاف ستكون مُرَّةً في أفواه الظلمة والمتسافلين مما يؤدي إلى عدائهم وأذاهم لرجالِ الحق من الأنبياء والرجال المصلحين والأشخاص المجددين في المجتمعات البشرية الذين ينالون قسطاً من العداوة ويتحملون الشدة والأذىٰ .

«العلم يدعو للعمل» :

إنّ الطريف في الأمر ، النقطة التي تبنتها هذه الآية المباركة من خلال إستعراضها للحوار الموسوي مع بني إسرائيل حيث يقول : ﴿ **وقد تعلمون أني رسول الله إليكم** ﴾ [الصف/ ٥] . حيث استند موسى (ع) إلى هذه الجملة من الآية بقوله ذلك منّوها وموضّحاً إلى بني إسرائيل : بأنكم تعلمون أني مبعوث من قبل الله سبحانه وتعالى إليكم ، فلِمَ تؤذونني إذن ؟ بل من المفروض أن يكون عمل العالم والعارف مطابقاً لعلمه .

ومن المعلوم أنّ قدرة العلم والمعرفة قد تصل بالإنسان في بعض

الأحيان إلى العصمة والصيانة من الذنوب والمعاصي ، وما نراه عند البعض من عدم ممارسة أو إرتكاب المعاصي مهما صَغُرَتْ إلاّ دليلاً قاطعاً على علمهم بأن هناك محاكماً تقام يوم الجزاء من قبل الله تعالى يقف الناسُ فيها للحساب على أعمالهم إن هم أذنبوا وتمادوا في الذنوب .

وعندما يحصل عند الإنسان هذا العلم القطعي وتراءت لناظريه الصورة التي فيها يُدعىٰ الناسُ المذنبون إلى جهنم دَعّا فإنه يجتنب فعل الآثام وعمل المعصيات حيث يُعتبرُ ذلك صيانةً له من النار .

إذن كلّما زاد علمُ الإنسان وقوي يقينه كلما ابتعد عن المعاصي ولذا فإننا نرىٰ العلماء العظام يخشون الله ويخافون الإقتراب من المعاصي فضلاً عن إرتكابها وهذه شهادة الله لهم حيث يقول : ﴿ **إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر/ ٢٨] .

وقد جاء في بعض الروايات مؤكداً بأنّ العلم يدعو الإنسان إلى العمل ، حيث قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) بصدد هذا الموضوع : «العلمُ مقرونٌ إلى العمل فمن عَلِمَ عَمِلَ ومَنْ عَمِلَ عَلِمَ ، والعلمُ يهتف بالعمل فإن أجابه . . وإلاّ إرتحلَ عنه»[1] .

هذه الرواية وأمثالها تشير إلى أنّ العلم إذا تجرّد من العوامل الخبيثة والفاسدة فسوف تكون نتيجة طيبة ويحصل الإنسان على ثمرة علمه الصالحة وبعكسه إذا كان العلمُ محفوفاً بالمطامع والشهوات فسوف يكون حَرْبةً حادةً لتوسيع دائرة المعصية وإشاعة الفساد لا غير .

---

(١) وهذه السور هي : البقرة ـ آل عمران ـ النساء ـ المائدة ـ الأنعام ـ الأعراف ـ يونس ـ هود ـ إبراهيم ـ الإسراء ـ الكهف ـ مريم ـ طه ـ الأنبياء ـ الحج ـ المؤمنون ـ الفرقان ـ الشعراء ـ النحل ـ القصص ـ العنكبوت ـ السجدة ـ الأحزاب ـ الصافات ـ غافر ـ فصلت ـ الشورىٰ ـ الزخرف ـ الأحقاف ـ الذاريات ـ النجم ـ الصف ـ النازعات ـ الأعلى .

«القرآن وحريّة الإنسان»

إنّ مسألة الجبر والإختيار هي من جملة المسائل القديمة التي طُرحت في الفلسفة اليونانية وقد بُحثت في الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام بشكل مفصّل وكُتبَ في شرحها وتحليلها رسالات متفرقة وأسهبتْ في حلّ إشكالاتها[1] وإلى الآن تأخذ هذه المسألة موقعها في فلسفة الشرق والغرب وما زالت كذلك تفتح الأبواب لتحليلاتها حيث تُطرح الأفكار والآراء والنظريات حسب ما تمليه العقول والقناعات . حيث أن فلاسفة الغرب ينظرون إلى مسألة الجبر والإختيار من زاويةٍ مفادها هل يكون الإنسانُ حرّاً في إرادته ورغبته أم يخضع في ذلك إلى قانون الجبر «العلية والمعلولية» ؟ .

إن إرادة كلّ فردٍ هي نتيجة قهرية «للبيئة الحياتية» وإنّ الصفات التي نراها فيه هي نراها فيه مكتسبة عن طريق الوراثة والتي ستصبح فيما بعد مميزات سلوكه في التربية والتعليم ، وهذه العوامل هي التي توجد الإرادة في الإنسان رضي أم لا .

ولكنّ فلاسفة الإسلام يرون أن هذه المسألة ـ إضافة إلى تلك النظرة ـ ترتبط بمشيئة الله تعالى وإرادته وأن جميع ذرّات العالم تنهل من معين إرادته جلّت صفاته . . . وإذا بحثنا في الكتب الفلسفية سنجد بأن هذين البحثين منفصلان حيث يستقل كلٌّ منهما عن الآخر من دون تداخلٍ بينهما . فأفعال الإنسان ترتبط بمشيئة الله تعالى وهذا بحث مستقلٌ لوحده يستقى أصل بحثه من القرآن الكريم ويحقق فيه بصورة كاملة ليكون رسالةً مستقلةً .

---

(١) أصول الكافي ، ص ٢٢ .

«حكم القرآن في أفعال البشر» :

إنّ البيان الصحيح في تحكيم القرآن في أي موضوعٍ كان يرتبط بتفسير وتحليل جميع آيات ذلك الموضوع لكي نتعرف من خلال التحقيق في مجموعة الآيات على رأي ونظر القرآن الكريم ، فليس من الإنصاف أن نأخذ بتلابيب آيةٍ واحدةٍ تتناول جانباً معيناً من موضوعٍ ما ونهمل بقية الآيات الأُخرىٰ التي تتحدث عن الجوانب الأُخرىٰ لذات الموضوع . فالذي يجب أن نلفت إليه الأنظار هو البحث في تمام خصوصيات المسألة التي جاء بها القرآن الكريم من كل جوانبها ، حتى لا نقع في الخطأ الذي وقع فيه مريدوا مذهبي «الأشاعرة» و «المعتزلة» نتيجة إستغفالهم لأصل المسألة والتسمك بعدة آياتٍ تتطرق إلى بعض جوانبها والتغاضي عن آيات أُخرىٰ يمكن أن تكون قرينةً ودليلاً للمراد والمطلوب .

إنّ الأشاعرة يقولون بإرجاع أفعالنا إلى ذات الله تعالى مباشرةً باعتباره المسبب الأصلي وأنّ البشر آلةٌ بدون أختيار . والدليل على أفكارهم تلك مأخوذٌ من ظاهر بعض الآيات التي تنظر إلى جانب واحد من جوانب المسألة فعلى سبيل المثال : ﴿ قل الله خالق كلّ شيءٍ وهو الواحد القهار ﴾ [الرعد/ ١٦] .

فهم يغفلون عن تلك الآيات التي تصرّح بعلية الموجودات في عالم الطبيعة ناهيك عن التعريف بآثار وعلل خلقة الظواهر الطبيعية .

فالقرآن المجيد في الوقت الذي يقول فيه بأن جميع الموجودات خلقها الله يصرّح أيضاً بأن هذه الموجودات تحمل معها مبدأ التأثير في غيرها فالرياحُ تُلقِّحُ الأشجار والحشائش **﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾** [الحجر/ ٢٢] . والماء هو علةُ وجود النباتات وجميع الثمرات **﴿ فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثمرات ﴾** [الأعراف/ ٥٧] . وهاتان الآيتان وعشرات أخريات تصرّحان بوضوح ارتباط العليّة بين الريح والمطر والتلقيح وخروج الثمر وما إلى ذلك من العلل

والأسباب[1] .

فالإنسان عموماً سواءٌ المؤمن أو الكافر ـ كما يذكر القرآن ـ هو المبدأ والعلة لسلسلةٍ من الأعمال الخيّرة والشريرة التي من جرّائها إما أن يثاب أو يعاقب . وهنا نسأل : كيف تأتىٰ لأصحاب هذا المذهب الإفراطي التغاضي عن بعض الآيات والقول بأن الله تعالى هو السبب المباشر في آثار الظواهر في الوقت الذي لو وضعنا الآيات إلى بعضها البعض أو الواحدة إلى جنب الأُخرىٰ لنتج لدينا أن أفعالنا في الوقت الذي تكون فيه معلولة وجودنا ، يبقىٰ وجودنا مرتبطاً بوجود الحق سبحانه وتعالى ، وكلّ ما لدينا مكتسبٌ من عنده جلّ جلاله . فالعالم كلّه معلول ومخلوق لله تعالى وإن هاتين العلتين متلازمتان على طول أحدهما الآخر وليس على عرضهما .

وبناءً على هذا يكون فعل أيّ إنسانٍ في المكان الذي يكون الله تعالى فيه معلولاً يكون الإنسان فيه معلولاً أيضاً في حالة إنجاز عمله ، ولا يكون غير محتاجٍ لله تعالى في أي ظرف كان ، لأن نتيجة أن يكون الله وحده معلولاً ، جبراً ، وهو ما يناقض العدل الإلهي ونص الآيات الأُخرىٰ . ونتيجة معلولية وجود الإنسان فقط تُعتبر شركاً واعتقاداً بفاعلين مستقلين ، وعندما يتنافىٰ الحال هذا مع التوحيد ومع صريح الآيات التي تؤكد أن الإنسان مخلوقه جلّت قدرته[2]

---

(١) بصدد مسألة الجبر والإختيار كُتبت رسالتان إحداهما باللغة العربية تحت اسم «لب الأثر» والأُخرىٰ باللغة الفارسية . الرسالة العربية هي خلاصةٌ لدروس الأستاذ قائد الثورة الإسلامية في إيران والتي ألقاها عام ١٩٦٢ في مدينة قم المقدسة .

(٢) سلب الأشاعرة من جميع الموجودات كل أنواع العليّة والتأثير واستخدموا كلمة «عادة» بدل كلمة «عليه» ويقولون لا تكون النار علة الحرارة بل انها «عادة» الآلة الجارية في أن تقوم الحرارة بعد اضطرام النار ، وهكذا في موارد أُخرىٰ من قبيل أفعال الإنسان .

«ذريعةٌ أُخرىٰ للجبريين» :

الذريعة الأُخرىٰ التي يتحجج بها الجبريون هي جملة ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف/ ٥] . حيث يعتقدون بأن الله تعالى أجبرهم على الزيغ من دون الإلتفات إلى الجملة التي قبلها والقائلة ﴿ فلما أزاغوا ﴾ .

والحقيقة إنهم يريدون قسر المعاني القرآنية لتوافق عقيدتهم مع العلم بوجود جملٍ كثيرةٍ مشابهةٍ لها وإليك نماذج من ذلك :

١ ـ ﴿ ثمّ انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾ [التوبة/ ١٢٧] .

٢ ـ ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ [المائدة/ ١٣].

٣ ـ ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ [البقرة/ ١٠] .

٤ ـ ﴿ كذلك يطبعُ الله على كلِّ قلبِ متكبرٍ جبار ﴾ [غافر/ ٣٥] .

إن هذه الآيات وما يشابهها كثيرٌ في القرآن الكريم وهدفها تبيّنه آية أخرىٰ وهي : ﴿ إنّ الله لا يغيّرُ ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد/ ١١] . وفي هذه الحالة تكون الخيبة أوّ البلية أو التوفيق الذي ينال الإنسان مرهوناً بـأعمـالـه وأفعـالـه وقـد أشـارت هـذه الآيـات إلـى ذلـك بصـريـح العبـارة ووضوحها ؛ فَمنْ زاده الله مرضاً كان مريض القلب . ومَنْ جعل الله قلوبهم قاسية فلأنهم نقضوا عهده وأن الله صرف قلوب قوم لأنهم انصرفوا في بادىء الأمر ، وعليه فالأقوام المسيئة أو الناقضة للعهود أو المنافقة والظالمة يجب أن تتحمل وزر أعمالها .

فالجمل التي ذكرنا من قبيل : فلما زاغوا ، ثم انصرفوا ، فبما نقضهم ، سابقة لحكم الله عليهم الذي تفسّره الجملة التي تليها والمتعلقة بجزاء الله تعالى ، فلرغبتهم بالزيغ ، أزاغ الله قلوبهم ، ولنقضهم ميثاقهم جُعلتْ قلوبهم قاسية ، وكذا الأمر يشمل الناس الذين يرغبون بالهداية

فيهديهم الله بلطفه ورحمته ، أما الأفراد الذين غرقوا في المعاصي لا يمكن أنْ يكون لهم أي إستعداد لمثل هذه المواهب المعنوية .

«ما هو المقصود من «القلب» في آيات القرآن»

إنّ المقصود من القلب في الآيات القرآنية ليس هو القلب الصنوبري الذي ليس له وظيفة غير إيصال الدم إلى جميع أنحاء الجسم ، بل المقصود منه هو العقل والروح كما جاء في كتب اللغة العربية لأن أحد معاني القلب هو العقل والروح ، فقد يكون أوّل استخدام لهذا اللفظ كنايةً عن العقل والروح مجازياً ولكن بعد تكرار هذا الاستخدام وشيوعه أُطلق على العقل والروح[1] .

المسيح (ع) يبشّر برسول من بعده اسمه أحمد (ص)

٦ ـ **﴿ وإذ قال عيسىٰ ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديَّ من التوراة ومُبشِّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سِحرٌ مبين ﴾** [الصف/ ٦] .

بخلاف تصوّر الفرق يكون طريق التعرف على الأنبياء الحقيقيين غير منحصرٍ بادعاء النبوة وامتلاك المعجزة بل بتمكنه من المعجزة مما يدعونا إلى تصديق نبّوته ، وعندها يمكننا التمييز بين أدعياء النبوّة والأنبياء

(١) وهذه هي الحقيقة التي بينها الإمام الصادق (ع) بعبارة : لا جبر ولا تفويض بل أمرٌ بين أمرين وهذه الحقيقة يرددها المصلّون كلّ يوم بقولهم : «بحول الله وقوته أقوم وأقعد» فجملة «بحول الله وقوته» . ردٌّ على عقيدة المعتزلة وجملة «أقوم وأقعد» ردٌّ على عقيدة الأشعرية .

الحقيقيين ، إضافةٍ لشهادة الأنبياء السالفين بحق اللاحقين لكي يحصل الإطمئنان في معرفتهم وإتباع نهجهم . فحينما يُثبتُ أيُّ نبيٍّ نبوّته بالدلائل القطعية بصراحةٍ ووضوح يمكن له أن يبين علامات ومشخصات النبي أو الرسول الذي سيأتي من بعده هدايةً لأتباعه إلى الصراط السوي والذي سيواصل السير عليه النبي الذي سيأتي من بعده وعندها تُطبّق العلامات والدلائل بدون زيادةٍ أو نقصان على مَنْ يُعْلِن نبوّته . وفي هذه الحالة ـ حالة التصريح ـ يحصل العلم والمعرفة بتصديق مَنْ أعْلَنَ نبوّته بدون الرجوع إلى معجزاته .

إنّ القرآن الكريم أثبت بالدليل القاطع نبوّة المسيح (ع) والذي صرّح بمجيء نبيٍّ من بعده اسمه «أحمد» ولكنّ بني إسرائيل المعروفين بعنادهم كذّبوا الرسول الذي أوصاهم به نبيّهم (ع) والذي عرفهم باسمه لكنهم مع ذلك ، وعلى الرغم من معرفتهم الحقّة بأنّه النبي الموعود ، وهو الذي جاءت علائمه في كتبهم لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة بل قالوا إنّ هذا سحرٌ مبين ، لكنهم يخفون وراء ذلك شعورهم الباطني للحقيقة التي جحدوها واستيقنتها أنفسهم .

إن تفسير وتوضيح الآية المذكورة إبتداءً يرتبط بثلاث نقاطٍ حسّاسة سنحقق فيها بشكلٍ دقيقٍ .

١ ـ إنّ الرسول الذي أخبر عنه المسيح (ع) اسمه «أحمد» .

وإنّ الاسم المبارك لنبيّ الإسلام هو «محمد» (ص) فكيف نتمكن هنا من تطبيق تلك العلامة على هذا الاسم .

٢ ـ كيف صدّق المسيح التوراة المحرّف وقال «مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة» ؟ .

٣ ـ هل تحمل الأناجيل الحالية ـ على الرغم من التحريف الموجود

فيها ـ مثل هذه البشارة ؟ .

«أحمد» المعروف بمحمد (ص)»

أحمد هو أحد الأسماء المشهورة لرسول الله (ص) ، فكلّ مَنْ طالع سيرته وحياته ولو بشكل مختصر لعرف بأنه كان له إسمان يُناديٰ بهما أحدهما «محمد» وهو الذي إختاره له جدّه عبد المطلب وسمّاه به ، والآخر «أحمد» حيث سمته به أمّه «آمنة بنت وهب» وهذا الحديث معروف ومسلّم به في تاريخ الإسلام ، وقد نقل هذا الموضوع وتفصيله كتاب السيرة الحلبية[1] .

لقد تكفّل الرسولَ الأكرمَ (ص) عمُّه أبو طالب بعد وفاة جدّه عبد المطلب حيث كانت لأبي طالب علاقة خاصة بابن أخيه (ص) فبذل أمواله ودفع بنفسه إلى المهالك دفاعاً عن ابن أخيه وحفاظاً عليه الذي ترعرع في حجره ، والذي كان يناديه أحياناً باسم محمد وأحياناً أُخرىٰ باسم أحمد ، وهذا ما يؤكد لنا بأن الرسول (ص) معروفٌ في ذلك الزمان بهذين الإسمين الشريفين ولا بأس من ذكر بعض أشعار أبي طالب التي دعا فيها ابن أخيه بأسم أحمد :

إن يكنْ ما أتىٰ به أحمدُ اليوم	سناءً وكان في الحشر دنيا[2]
وقوله لأحمد أنت امرؤٌ	خلوفُ الحديث ضعيف النسب[3]
وإن كان أحمد قد جاءهم	بحقٍ ولم يأتهم بالكذب[4]

---

(١) من أجل التعرف أكثر على معنى «القلب» و «الفؤاد» في القرآن الكريم ، راجع «منشور جاويد قرآن» وعلى الصفحات ٢٩٥ ـ ٣٠٩ .

(٢) إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون ج ١/ ٩٣ ـ ١٠٠ .

(٣) ديوان أبي طالب / ص ١٩ ، ٢٥ ، ٢٩ ، جميع هذه الأشعار موجودة في ديوانه ، وإن الأشعار التي تأتي بعد هذه غير منسوبة لأبي طالب بل منسوبة لابن أخيه وقد نقلها المحققون للتدليل على ما نريد .

(٤) نفس المصدر السابق.

أارادوا قتـــل أحمـــد ظـــالمـــوهُ وليـــس بقتلهـــم فيهـــم زعيـــم[1]

إنّ هذه الأشعار نسبها محققوا التاريخ والحديث الكبار إلى أبي طالب وقد نسب المحققون أيضاً أشعاراً أُخرىٰ تتطرّق إلى لفظ «أحمد» .

إلى ابن أخٍ له حيث جاء فيها :

لقـــد أكـــرم اللّـــهُ النبـــيَّ محمـــداً فأكرمُ خلقِ اللّهِ في الناسِ أحمدُ[2]

وجاء أيضاً :

لعمـري لقـد كَلِفـتُ وجـداً بـأحمـدَ وأحببتُه حبَّ الحبيبِ[3] المواصل
فـأصبـح فينـا أحمـدُ فـي أرومـةٍ تقصـر عنـه سـؤرة المتطـاولِ[4]

وقد جاء في ديوان حسّان بن ثابت ، شاعر النبي ، كثير من الأشعار التي تتعرّض إلى ذكر اسم «أحمد» ولا سيمّا بأن حسّاناً لم يوافه الأجل ألاّ في إواخر حياة الرسول (ص) أو بعد وفاته (ص) كما يقال :

مفجعـةٌ قـد شفّهـا فَقْـدُ أحمـدَ فظلّـت لآلاء الـرسـولِ تُعـددُ
أطالت وقوفاً تذرف الدمع جهدها على طلل القبر الذي فيه أحمد[5]

وجاء أيضاً في مدحه وتبيان صفاته الجليلة صلوات الله وسلامه عليه :

فمـن كـان أو مَـنْ يكـون كـأحمـد نظـام لحـقٍ أو نكـال لملحـد[6]

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) تاريخ ابن عساكر ج ١/ ٢٧٥ ، تاريخ الخميس ج ١/ ٢٥٤ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ١/ ٢٧٩ ، وجاء بعض النسخ : دأب المحبّ .

(٥) سيرة ابن هشام ج ١/ ٢٨٠ .

(٦) ديوان حسان بن ثابت ص ٥٩ تحقيق محمد عزّت نصر الله ـ طبع بيروت .

نقلنا لكم هذه الآبيات والنماذج الشعرية ليتضح بأن الرسول (ص) في زمانه كان يسمىٰ بـ «أحمد» وهو اسمٌ غيرُ خافٍ على أحد في ذلك الوقت ، ولو أردنا أن نتطرّق إلى مجموع الكتب التي تعنىٰ بالحديث والتاريخ والأدب لخرجنا عن موضوعنا كثيراً ولطال بنا الحديث في هذا الموضوع[1] .

لقد نزلت هذه الآية المباركة في «نجران» مركز تجمع المسيحيين في شبه الجزيرة العربية في الوقت الذي كان فيه بعض الفرق اليهودية وأحبارها والقبائل اليهودية والسائرين على نهج وخطىٰ الإنجيل يعيشون في مختلف أرجاء الجزيرة العربية ولم يصدر من أيٍّ مِن هؤلاء إيٍّ إعتراضٍ على ما ورد في القرآن من أن المسيح (ع) بشَّر برسالةِ نبيٍّ يأتي من بعده اسمه أحمد وأن نبي الإسلام (ص) اسمه محمد (ص) ولوحدث هذا وكان لنقلت لنا كتب الحوادث التاريخية ذلك الإعتراض وبهذا فإن القضية تقطع بالدليل الواضح على أن أحد أسماء الرسول (ص) هو «أحمد» .

إنّ الكثير من الأنبياء والرسل ـ كما يحدثنا القرآن والأحاديث وكتب التفاسير وغيرها ـ كانوا يحملون إسمين ، ولذا لم يتعجب أحدٌ من ذكر اسم أحمد أو محمد على السواء ، فلقد كان الاسم الثاني للنبي يعقوب هو إسرائيل ، وللمسيح عيسىٰ ، وليوشع ذو الكفل ، وليونس ذو النون .

كيف صدق عيسى (ع) التوراة المحرَّف ؟

جاء في الآية الشريفة عن عيسى (ع) : تصديقه للتوراة الذي بين يديه . وهنا يُطرح السؤال الذي يستفسر عن ذلك التصديق لتوراةٍ محرّف ، وهذا السؤال يشمل هذه الآية والآيات الأُخرىٰ المشابهة لها والتي تحمل عبارة «بين يدي» أو «بين يديه» ، كالذي جاءت في سورة فاطر : ﴿ والذي

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٦٥ .

أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصّدقاً لما بين يديه ﴾ [فاطر/ ٣١] .
فعبارة «بين يدي» تعني ما تقدم من الكتب السماوية السابقة على حدٍّ ما جاء ما تفسيرها في مجمع البيان ج ٢ ص ٢٠٧ ، وكذا في كلام المرحوم البلاغي[1] حيث قالا بأن لفظ «بين يدي» في اللغة العربية تعني المتقدم عليّ أو السابق لي ، وبناءً على هذا ، فالمسيح مصّدقٌ للتوراة الأصلي والحقيقي وليس التوراة المحرّف أو المزّيف .

وكذا بالنسبة لرسول الله (ص) محمد بن عبد الله حيث كان مصدّقاً ومعتقداً عقيدة راسخةً بأن الله تعالى بعث أنبياء ورسلاً وتوراةً وإنجيلاً وإنّه يصدّقُ ذلك على الرغم من أن القرآن يصرّح بعدم سلامة الكتب السماوية السابقة من التحريف ، وعليه فالرسول الأكرم (ص) يصدّق الكتب الحقيقية السليمة وليس المزيفّة والمحرّفة والمزوّرة والتي حُرّفتْ عن حقيقتها الواقعية .

فالجواب الواضح لهذا السؤال يكون : إن قصد المسيح (ع) من تصديقه للتوراة هو : إن الأصول وكل القوانين والشرائع من عقائد وأحكام مصدَّقة لديه[2] أي «لَمْ أُرسل لمسخ الأصول والأوامر التي جاءت في التوراة ، ولم أُرسل لأصدِّق كل ما جاء في الكتب المختلفة والتي أُطلق عليها اسم التوراة بل اصدق وجود توراةٍ أنزله الله سبحانه وتعالى وأُكْمِلَ مسيرته بالإنجيل الذي أنزله الله عليَّ» .

وأساساً إنّ أيّ رسولٍ أو نبيٍّ مبعوث بشريعةٍ مستقلّة عن الشريعة الأُخرى ـ وإنْ كان الهدفُ واحداً ـ لا يمكن أن يأتي بكل ما جاءت به الشريعة

---

(١) ومن أجل التعرف أكثر . راجع كتاب : مجمع البيان ج ٣/ ٢٨٧ ، سيرة ابن هشام ج ٢/ ٢٧٠ ، بحار الأنوار ج ٢٠/ ٢٥٩ . بلوغ الأدب ج ٢/ ٢٨٤ ، معالم النبوّة في القرآن الكريم ص ٥٤٩ ـ ٥٥٦ .

(٢) الرحلة المدرسية ص ٢٣٢ .

السابقة بكل حذافيرها وذلك لاختلاف العوامل والظروف الموجبة لرسالته والبيئة التي يبعث فيها ، وغيرها فإنه لو جاء بما جاء به الرسول السابق له فما يعدو كونه مروّجاً لشريعة من هو قبله وهذا ليس من المنطق في شيء ، في الوقت الذي نعلم بأن المسيح جاء بشريعةٍ مستقلةٍ ومنفصلةٍ عن باقي الشرائع ، ولهذا يمكن القول بأنّ المقصود من التصديق هو :

التأييد الإجمالي للتوراة فقط :

إنّ إحدىٰ علل بعثة المسيح (ع) هو رفع الإختلاف بين بني إسرائيل والتعريف بالأحكام الإلهية وقد صرّح بذلك القرآن الكريم :

﴿ قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ [الزخرف/ ٦٣] .

يستفاد من هذه الآية الشريفة أن بني إسرائيل لم يكونوا متفقين على شريعة موسى (ع) وإلاّ ما جرىٰ بينهم ذلك الإختلاف ، وهذه الحقيقة بنفسها دليلٌ على عدم وجودِ أيِّ توراةٍ في المجتمع الإسرائيلي زمن بعثة المسيح (ع) يمكن أن يصدّقه ولذا يمكن القول بأن المقصود من التصديق هو التأييد الإجمالي لهذا الكتاب وليس تصديق كل ما جاء في النُسخ التوراتية في ذلك الزمان .

نُسَخُ الانجيل وشهادتها على مجيء الرسول (ص)

إنّ إحدىٰ الطرق لتشخيص ومعرفة الأنبياء هي التصريح بالاسماء أو بالدليل القاطع باليقين على نبوّتهم شريطة أن يكون التصريح بشكلٍ لا يتردد الناس فيه بعيداً عن الشك في مقام المعرفة والتطبيق .

وعلى الرغم من ثبوت الدلائل القطعية الواضحة على نبوّة رسول الإسلام محمد (ص) فقد جاء التصريح والتأكيد على نبوّته في كتب الأنبياء

السابقين له . حيث ذكرت كتب العهدين اسمه وخصوصياته ، وهذا مما يعني تبشير التوراة والأنجيل بمجيئه (ص) والذي يشكل أحد الفصول المهمة لهذين الكتابين . وقد جمع ثلّة من الفضلاء والعلماء جميع بشارات هذين الكتابين والتي تختص بخاتم الأنبياء والرسل من موارد مختلفة ، وبهذا قدّموا خدمةً جليلةً للإسلام والمسلمين[1] .

يقول القرآن الكريم وبشكلٍ واضح إنّ اليهود والنصارىٰ ومن خلال مطالعتهم لكتابيهما سوف يجدونَ اسم الرسول (ص) وصفاته وخصوصياته مكتوبةً لديهم حيث قال : ﴿ **يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** . . . ﴾ [الأعراف/ ١٥٧] .

وكذلك الآية مورد بحثنا فهي واضحة جداً بما نقلته عن عيسىٰ وصريحةٌ بما جاء فيها : ﴿ **ومبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾ والتي قرأها النبي (ص) وقرأ من أمثالها من الآيات على الناس في ذلك الوقت في شبه الجزيرة العربية ، فلم نعلم أحداً من علماء اليهود والنصارىٰ يعترض على قوله (ص) وهذا ما يؤكد وجود هذا القول وثبوته للمسيح (ع) في كتبهم ، إضافة لذلك وزيادةً في التأكيد ما يخبرنا به التاريخ عن إلتحاق بعض علمائهم وقساوستهم بركب الإسلام واعتناقهم إيّاه وذلك لما عرفوه وشاهدوه من التطابق الدقيق بين صفات النبي محمد (ص) وخصوصياته وما جاء في كتبهم السماوية عنه .

التحقيق في الأناجيل الحالية

بلا شك إنّ البشارة التي تعرّض لها المسيح (ع) في إنجيله موجودةٌ ولا تقبل النفي ، وعلى سبيل الفرض نقول بأن هذه البشارة لا وجود لها في

---

(١) المنارج ٧/ ٦٣٠ .

الأناجيل الحالية فما هو الجواب ؟ الجواب هو : إن عدم وجود مثل هذه البشارة في الأناجيل الحالية لا يشكلُ دليلاً بالضرورة على خلوّ إنجيل المسيح (ع) من هذه البشارة ، لأن وجود عدّة متون لأناجيل مختلفة ـ على الرغم من أن الإنجيل واحدٌ فقط ـ ولقد كتبتْ متون الأناجيل الموجودة حالياً بأيدي حواريين دوّنوا أقوال وأفعال المسيح (ع) إضافةً إلى مشاهداتهم وما يسمعون وظنونهم وما يتنبأون كلّها سجلوها ضمن صفحات الإنجيل الأصلي الحقيقي ليصبح إنجيلاً جديداً هو في الحقيقة خليطٌ من الانجيل الأصلي وما سطّره الحواريون فَعُرِفَ الأنجيلُ باسمِ الذي كتبه ، وقد إدّعىٰ كلُّ شخصٍ «حوريٍّ» ممن كتبوا هذه الأناجيل بأنّ إنجيله هو الأساس وهو الذي جاء به المسيح (ع) . في حين نرىٰ دائرة المعارف البريطانية[1] تذكر بأنّ خمساً وعشرين إنجيلاً كان متداولاً في القرون الأولىٰ للمسيحية كل واحدٍ يختلف عن الآخر لأنّ تغيير بعض الأحكام الدينية يتم في زمان كلّ مرجع من مراجع المسيحيين وبالأخص مسائل التحريم فيها ، غير إن العلماء المسيحيين إعترف فقط بأربعة أناجيل من بين تلك التي نيّفتْ على العشرين وتترك باقي الأناجيل دون اعتبار في زاوية الإنقراض .

والأناجيل الأربعة المعتبرة عند المسيحيين هي :

١ ـ **إنجيل متّى** : ومتى هذا هو أحد أصحاب المسيح (ع) وإن إنجيله لاقىٰ رواجاً قبل الأناجيل الأُخرىٰ ، إلاّ أنه لم يُعرف تاريخ كتابته ، فالبعض يقول بأنه كُتِبَ في عام ٣٨ ميلادي ويذهب البعض الآخر إلى القول بأنه كُتَبَ ما بين عام ٥٠ وعام ٦٠ ميلادي[2] .

٢ ـ **إنجيل مرقص** : ومرقص لا يُعْرَف كونه أحد الحواريين بل يقال

---

(١) ج ٢ ـ ط ١٣ ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٢) نقلاً عن قاموس الكتاب المقدس/ تأليف مستر هاكس الأمريكي الأصل والذي طبع في بيروت عام ١٩٢٨ .

بأنّه كتب إنجيله بإشارة من «بطرس» الذي كان أحد الحواريين . وفي الحقيقة أنه كتب تاريخ الأنجيل الحقيقي بسبب ذكره للحوادث الكثيرة التي جاءت على لسان المسيح (ع) . وإن العبارات التي جاءت في إنجيله بسيطة وشديدة وقصيرة وحيناً تكون تفصيلية البيان .

٣ ـ **إنجيل لوقا** : والمعروف عنه إنه كتب هذا الإنجيل بإشارةٍ من «بولص» وهو أحد الحواريين والذي كان غالباً ما يسافر مع لوقا . وتاريخ كتابة هذا الأنجيل كان في حدود عام ٦٣ ميلادي[١] .

٤ ـ **إنجيل يوحنا** : يقول الكتاب القدماء : إنّ إنجيل يوحنّا هو آخر إنجيل كُتب ويرىٰ أغلب النقاد بأنه كُتبَ في أواخر القرن الأول خلافاً لما يراه البعض حيث يقولون بأنه كتب في أوائل القرن الثاني الميلادي ناهيك عن قولهم بأنّ الذي كتبه يوحنّا الشيخ وليس يوحنّا الرسول[٢] .

هذا هو وضع الأناجيل المعترف بها رسمياً في عالم المسيحية وعليك أنت قراءة الحديث المفصّل من هذا المجمل .

وعليه ينبغي تقصّي حقيقة وضع الأناجيل التي طرحها مراجع المسيحية بعيداً[٣] .

---

(١) نقلاً عن قاموس الكتاب المقدّس لمستر هاكس .

(٢) نقلاً عن قاموس الكتاب المقدس لمستر هاكس .

(٣) إن الأناجيل الأربعة تتناقض فيما بينها بشكل ظاهر ، وقد يناقض أحد الأناجيل نفسه بنفسه ، ناهيك عن المواضيع الخرافية والتي تشبه إلى حدٍّ ما الأساطير ، والأحاديث التي لا يقبلها العقل ولا المنطق وهذه تجرّ حتماً إلى تخطئة قرّائها . لذا قال الغالبية العظمىٰ من الكهنة والرهبان بسقوط هذه الكتب الأربعة من دائرة الإعتبار والسفدية ولذا ـ ومن أجل الحصول على معلوماتٍ أكثر ـ عليكم بمراجعة كتب : الهدىٰ إلى دين المصطفىٰ والرحلة المدرسية وأنيس الأعلام وعشرات من الكتب الأُخرىٰ التي كتبها العلماء والمحققون الإسلاميون .

وبناءً على هذا فإنّه لا يمكن إعتبار أيّ واحدٍ من هذه الأناجيل هو الإنجيل الحقيقي الذي جاء به السيد المسيح (ع) ، وحتى نسبة هذه الكتب الأنجيلية الأربعة إلى مؤلفيها أمرٌ يعتريه الشك والتردد في القبول . ولكنْ يمكن إعتبار إنجيل متّى هو الكتاب الوحيد الذي يحتوي على مواضيع أُخِذَتْ من إنجيل المسيح (ع) . وإمّا إنجيل مرقس فهو خلاصةٌ لبياناتِ بطرس . وإنجيل لوقا ما هو إلاّ نقلٌ للأفكار المكثفة في إنجيل بولص ، وأخيراً فإنّ مؤلف إنجيل يوحنّا غيرُ معروفٍ على وجه الدقّة .

وفي هذه الحالة يجب أن لا ننتظر وجود بشارة نبحث عنها في هذه الأناجيل ، ولكنّ مشيئة الباريء تعالى أرادت أن تبرهن للجميع على أن دليل نبوة الرسول محمد (ص) وضاحةً متلألئةً على مرّ الدهور ، حيث نرىٰ بزوغ فجر هذه البشارة بشكل واضح جداً ومشرق في إنجيل يوحنّا ، فعلى الرغم من التفسير الصريح الذي جاءت به عبارات الآية الإنجيلية فإنّ المفسرين المسيحيين يسعون وبشتىٰ الطرق لحرفها عن أصلها خدمةً لأغراضهم الخاصة ، وإذا ما دققنا في الموضوع قليلاً ستتجلىٰ لنا الحقيقة ويتضح واقع الأمر علماً بأنّ هذه البشارة موجودة فقط في إنجيل يوحنا في الأبواب ١٤ ، ١٥ ، ١٦ وعلى وجه الدقّة في الإنجيل الذي كُتِبَ باللغة السريانية[١] .

وقد ذُكِرَ فيه اسم الرسول الذي سيأتي من بعد المسيح (ع) باسم «فارقليط» ولأنّ إنجيل يوحنا كانت بدايته باللغة اليونانية ، تصوّر البعض أنّ هذا اللفظ ـ يعني الفارقليط ـ له أصل يوناني وسنشير إلى ذلك فيما بعد .

---

(١) إن الإنجيل نزل باللغة العبرية وبناءً على الأخبار والروايات أمر اللّهُ المسيحَ بتفسيره باللغة السريانية لأهل سورية السريانيين ، لذا قد يُخطىء البعض ويتصور أن لغة الإنجيل هي السريانية وإنّ الأناجيل السريانية هي أقرب الأناجيل إلى الإنجيل الواقعي .

نقاط مهمّة :

١ ـ كان المسيحُ يتحدّث بالعبرية لكونه ترعرع وكَبُرَ بين أحضانها وإنّ من بين كُتّاب الإنجيل «متّى» الذي كتب إنجيله باللغة العبرية . والثلاثة الباقون كتبوا أناجيلهم باللغة اليونانية ، وبناءً على هذا فإن اللفظ الذي تلّفظ به المسيح (ع) إختفىٰ من الوسط الإجتماعي ، وإنّ البشارة بقيت مذكورة فقط في إنجيل يوحنّا لكونه كُتب منذ البداية باللغة اليونانية .

٢ ـ «فارقليط» لفظ من اللغة السريانية التي كان يتحدث بها أهل سورية آنذاك حيث نرىٰ اللفظ مستخدماً في الأناجيل التي كُتبتْ بالسريانية . ويتفق علماء الإسلام ومفسروا الإنجيل على أن هذا اللفظ معرّب عن اليوناني الذي كتب يوحنّا به إنجيله ، ولكنّهم يختلفون في معنىٰ هذا اللفظ في اللغة اليونانية .

في حين يتفق المحققون الإسلاميون على أن الأصل اليوناني لهذه الكلمة هو «بربكليطوس» والتي تعني «محمداً وأحمد» ولكنّ المفسرين للأناجيل يقولون إن أصل هذه الكلمة هو «باركليطوس» أي «المواسي» .

وينبغي هنا ومن خلال قراءتنا في متون الآيات الإنجيلية إثبات الحقيقة التي جاء بها المسيح (ع) .

٣ ـ ليس بعيداً أن يكون المسيح (ع) قد ذكر بالحرف الواحد اسم الرسول الذي سيأتي من بعده ، كأن يكون قال : «أحمد» ولكنّ كاتب الإنجيل الرابع ـ والذي وردت فيه تلك الإشارة ـ ترجم كلمة أحمد وفق ذوقه وحسب مزاجه الذي حدا به لإستخدام أحد اللفظين اللذين تعرضنا لهما ، على الرغم من أنه لا ينبغي ترجمة الأعلام واسماء الأشخاص بل يجب بقاء الاسم على حاله في ترجمة الموضوع .

٤ ـ في الأناجيل الفارسية وبشكل عام جاء لفظ «تسلّي دهنده» أي

«المواسي» بدل كلمة «فارقليط» وقد فسّرها أغلب المفسرين بكلمة «روح القدس» وسنُثبت بالشواهد والبراهين الواضحة بأنّ هذه الكلمة لا يمكن أن يكون تفسيرها «روح القدس» .

٥ ـ إنّ الأشخاص الذين فسّروا «فارقليط» بروح القدس قالوا في تفاسيرهم «نزل روح القدس بعد صلب عيسىٰ بخمسين يوماً في الوقت الذي كان فيه الحواريون مجتمعين في منزلٍ واحد ، وفجأةً سُمِعَ صوتٌ يشبه هبوب الرياح من السماء ليملأ أبدانهم بروح القدس ، عندها بدأوا يتكلّمون بألسنةٍ مختلفةٍ بسبب منح أرواحهم قدرة التكلّم »[١] .

الإنجيل يُبشِّرُ بمجيء فارقليط

يقول المحققون الإسلاميون : إنّ البشارة التي جاء بها المسيح (ع) موجودة في إنجيل يوحنّا في الأبواب ١٤ و ١٥ و ١٦ .

وإنّ المسيح (ع) ـ على حد نقل إنجيل يوحنّا ـ يقول بمجيء شخصٍ باسم «فارقليط» بعده ، وإنّ الكثير من القرائن تشهدُ على أن المقصود هو نبي الإسلام محمد (ص) . ومن أجل إيضاح الموضوع أكثر نرىٰ أنفسنا مضطرّين إلى درج متون بعض الآيات الإنجيلية مع تعيين أبوابها وأرقام جُملها :

«إن كنتم تحبونني ، إحفظوا أحكامي ، حتى أطلب من الأب لكم «فارقليط» آخر ، سيكون معكم إلى الأبد ، إنه روح الحق والحقيقة لا يقبله العالم بسبب عدم رؤيتهم له ومعرفتهم به ، أما أنتم فتعرفونه لأنه سيبقىٰ معكم وفيكم»[٢] .

---

(١) أعمال الحواريين/ باب ١ ـ ٥ .

(٢) إنجيل يوحنا/ باب ١٤ : ١٥ ـ ١٧ ، طبعة لندن عام ١٨٣٧ ميلادي وباقي الجمل =

«إنّ هـذه الأحـاديـث قلتهـا لكـم عنـدمـا كنـت معكـم ، ولكـنّ ذلـك «الفارقليط» الذي سيبعث من قبل الأب باسمي وهو الذي سيذكركم بما تعلمتموه وما علمتكم أيّاه»[1] .

«ولآن وقبل الوقوع أخبرتكم ، وما إن يقع ، عليكم أن تؤمنوا[2] ، وسأبعثُ لكم «الفارقليط» من جانب الآب والذي ستأتيكم روح حقيقية من جانبه ستشهد بصددي[3] » .

والحقيقة أقول إنّ ذهابي عنكم سيكون مفيداً لكم ، وإذا بقيتُ فلن يُتاح لذلك «الفارقليط» المجيء إليكم ، وإذ ما ذهبتُ فسوف أبعثه لكم . ولكنه عندما سيأتي سُيلزم العالمين بالمعصية وبالصدق وبالإنصاف : بالمعصية لعدم أيمانهم به . وبالصدق لأنني سأذهب إلى الأب وسوف لن تروني بعدها . وبالإنصاف لأن الحكم جرىٰ على رئيس العالم . وعندي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لكم ولكنكم لا تتحملون ذلك ، وإنه سوف يأتي ويخبركم بجميع الإرشادات وإنه لن يقول شيئاً من عنده ، بل سيقول ما سيسمع ، وسيخبركم بما ستؤول إليه الدنيا وسيمتدحني ويمجّدني لأن ما سيخبركم به سيكتسبه منّي وكلُّ ما كان عندي هو من الأب ، ولهذا قلت إنّه يأخذ عنّي ويخبركم»[4] .

= نُقلت أيضاً من هذه الطبعة ، ومن أجل التأكد أكثر طبّعنا ما لدينا مع التراجم الفارسية الأُخرىٰ عن اللغة السريانية والكلدانية .

(١) باب ١٤ : ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) باب ١٤ : ٢٩ .

(٣) إنجيل يوحنا : باب ١٥/ ٢٦ .

(٤) إنجيل يوحنا : باب ١٦/٧ ـ ١٥ .

«ما هو الفارقليط»

توجد قرائن واضحة لدينا تشير إلى أنْ المراد من «الفارقليط» هو الرسول الذي سيأتي بعد المسيح(ع) وليس روح القدس، وهذه القرائن هي:

أولاً : يجب الإلتفات إلى أنّ بعض التواريخ المسيحية استخدمت قبل الإسلام بين علماء ومفسري الإنجيل تشير إلى أنّ «الفارقليط» هو الرسول الموعود ، وقد أساء البعض إستخدامها فادّعىٰ بأنه «الفارقليط» الموعود .

فعلىٰ سبيل المثال ، «منتس» الرياضي الذي عاش في القرن الثاني الميلادي والذي إدعىٰ في عام ١٨٧ ميلادي في آسيا الصغرىٰ الرسالة قائلاً : بأنّه الفارقليط الذي أخبر عنه عيسىٰ وقد تبعه وقتها أُناسٌ وفرق[1] .

٢ ـ يستفاد من الآثار والتواريخ الإسلامية ما ذُكر عن إنتظار القادة السياسيين وعلماء الدين المسيحي لأيام الرسول الأكرم (ص) وإنهم كانوا ينتظرون موعود الإنجيل ، ويذكر صاحب الطبقات الكبرىٰ موقف ملك الحبشة بعد أن قرأ كتاب النبي محمد (ص) الذي أرسله بيد سفيره إليه والتفاته بعد انتهائه من القراءة إلى السفير ليقول له : أنا أشهد على أنّه الرسول الذي وعد به أهل الكتاب كما وعد موسى وأخبره بنبوة عيسى في توراته وقد وَعَدَ عيسىٰ في إنجيله عن نبوّة آخر الزمان وأعطىٰ علائم وشواهد الرسول الذي سيأتي من بعده[2] .

وكذلك عندما وصل كتاب الرسول (ص) إلى قيصر الروم وأتمّ قراءته حقّق في أمرِ الرسول الأكرم (ص) وأجاب بكتابٍ جاء فيه :

---

(١) أنيس الأعلام ج ٢/ ١٧٩ نقلاً عن تاريخ وليم ميور المطبوع عام ١٨٤٨ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١/ ٢٥٩ ، السيرة الجلية ج ٣/ ٢٧٩ .

قرأتُ كتابك وتعرّفتُ على دعوتك ، وكنتُ أعلم أنّ رسولاً سوف يُرْسَل ، ولكنّي كنتُ أظنُّ بأنه سوف يأتي من الشام[1] » .

يستفاد من هذه النصوص التاريخية إنهم كانوا ينتظرون نبيّاً ، ومن المؤكّد إنّ مثل هذا الإنتظار له جذورٌ إنجيلية .

٣ ـ إنّ الإمتيازات والمميزات التي ذكرها المسيح (ع) بصدد «الفارقليط» والشرائط والنتائج المحسوبة لمجيئه تقطع باليقين على أنّ المقصود من «فارقليط» لا يتعدىٰ أنْ يكون النبي (ص) الموعود ، وإن هذه العلائم تحول دون تفسير «الفارقليط» على أنها «روح القدس» . . . .

وهذا شرح للقرائن :

أ ـ بدأ المسيح (ع) حديثه هكذا «إن كنتم تحبونني ، إحفظوا أحكامي ، وسأطلب لكم من الأب «فارقليط» آخر» ـ باب ١٤ ـ جملة ١٥/ إنجيل يوحنا .

أولاً : نفهم من الطريقة التي تحدّث بها المسيح (ع) ، حيث جعل المحبّة أوّل كلامه ، أنّ هناك إحتمالاً لعدم قبول البعض للشخص الذي سيأتي من بعده والذي بشرّ به . لذا حاول المسيح (ع) تحريك العواطف حتى يدفع ذلك البعض إلى القبول . فإذا كان المقصود بهذا التحريك هو «روح القدس» الذي تصوّر البعض إنّ لفظ الفارقليط يعنيه ـ ففي هذه الحالة ـ لا موجب لتهيئة الأرضية من أجل روح القدس بهذا الشكل العاطفي ، لكونه لا يحتاج إلى ذلك ، لأنّ «روح القدس» بعد النزول كان له في القلوب والأرواح أثرٌ عميقٌ أزال معه كلّ الشكوك والإنكارات ، ولكنْ إذا كان المقصود هو النبي الموعود فإنّه يحتاج إلى مثل هذه الأرضية حاجةً ملّحةً ،

---

(١) التاريخ الكامل ج ٢/ ٤٤ .

لأن التبشير بالنبي الموعود لا تأثير له بغير طريق البيان والدعاية لكسبِ القلوب والأرواح ، وبناءً على هذه الملاحظة فإنّ قسماً مُنصفاً يتقرّب وينجذب إليه والقسم الآخر يبتعد عنه .

إنّ المسيح (ع) لم يكتفِ بهذا المقدار من التذكير بل أصرَّ في الجملة ٢٩ من الباب ١٤ قائلاً : «أمّا الآن وقبل الوقوع أخبرتكم لكي يتسنىٰ لكم الأيمان حين الوقوع» . . . في الوقت الذي لا يحتاج الأيمان بروح القدس إلى توصية لكنْ الذي حدث هو إصرار المسيح (ع) بالمقدار الذي يدلّل على أنّ المقصود ليس روح القدس .

ثانياً : لقد جاء في حديث المسيح (ع) جملة تقول : «سوف يعطيكم «فارقليط» آخر» . فإذا قلنا إنّ المقصود من ذلك رسولٌ آخر أصبح كلامنا معقولاً وصحيحاً ولكن إذا قلنا بأنّ المقصود هو روح القدس» الآخر سوف لن يكون كلامنا معقولاً ولا صحيحاً ، لأنّ روح القدس واحدٌ وغير متعدد .

ب ـ «كلّ شيءٍ قلته لكم سوف يذكّركم به» (١٤ : ٢٦) ، وإنّ الروح الحقيقة من طرف الأب سوف تشهد لي بذلك» .

نحن نعلم إنّ روح القدس نزل على الحواريين بعد خمسين يوماً من صلب المسيح (ع)[١] ، فهل يجوز أن يكون هؤلاء المنتخبون الخُلّص قد نَسوا جميع الأحكام التي علمها لهم المسيح (ع) في هذه المدة القصيرة حتى يعلمهم روح القدس أيّاها مرةً أُخرىٰ ؟ ! .

وهل يحتاج المسيح إلى شهادةِ أصحابه ؟ ولكنّ المقصود بهذه الشهادة هو الرسول الموعود ، وبهذا تصبح الجملتان صحيحتين ، لأن الأمة المسيحية على أثر طول الزمان وسرقة البعض لصفحاتٍ من الإنجيل وللتحريف الداخل عليه أصبحت أحكامه في عالم النسيان ، وقد أجاب

---

(١) أعمال الحواريين : باب ١ ـ ٥ إنجيل يوحنا .

الرسول محمد (ص) على عامة الأحكام التي ينبغي أن يُعمل بها إضافة إلى شهادته على نبوّة عيسىٰ (ع) وتبرئته من التهم المنسوبة إليه بإدعاء الألوهية والربوبية أو ما شابه ذلك . فبرئت ساحة المسيح المقدسة من التّهم والأقاويل .

ج ـ «إذا لم أذهب لن يأتي فارقليط» باب ١٥ ـ جملة ٧ .

إن ذهابه مشروط بمجيىء «فارقليط» ومجيء فارقليط مشروطٌ بذهابِ المسيح (ع) ، فإذا كان المقصود روح القدس ، فإن نزوله على المسيح أو على الحواريين ليس مشروطاً بذهاب المسيح ، لأنّ روح القدس كان قد نزل بعقيدة المسيحيين حينما إرسل المسيح حوارييه من أجل نشر الدين[١] .

وبناءً على هذا فإنّ نزوله ليس مشروطاً بذهاب المسيح ، ولكن لو قلنا إنَّ المقصود هو نبيٌّ وصاحبُ شريعةٍ عالميّة ، لأصبح الأمر منطقياً ومعقولاً لأنّ مجيئه مشروطٌ بذهاب المسيح لكونه سينسخ رسالته .

د ـ على أثر نزول «فارقليط» ستُعْرَف ثلاثة أشياء لكلِّ العالم ، وسيلزم الناس إذا أخطأوا أو أساؤوا «عندما سيأتي سيكون الناس ملزمين بالمعصية والصدق والإنصاف ، بالمعصية لعدم إيمانهم بي . «باب جملة ٧» .

لقد جاء في أكثر الأناجيل القديمة كلمة «توبيخ» بدلاً من كلمة «ملزم» والكلمة الثانية أنسب وأوضح لأنّ البعض من المفسرين واالكتّاب المسيحيين عندما يصلون إلى هذه الجملة يرون إنه ليس من المناسب إستخدامها مع روح القدس لأنها تَجرؤٌ على مقامه . وإنّ المقصود من رئيس العالمين هو الشيطان الذي يلزم الناس بالمعاصي وشاهد هذه الجملة يأتي على لسان المسيح (ع) في الآية ٣٠ حيث جاء فيها : «يأتي رئيس العالم وليس له حصة منّي» أي لا يتمكن من غلبة المسيح ، ومثل هذا التفسير لا

(١) إنجيل متى/ باب ١٠ : ٢٩ ـ إنجيل لوقا/ باب ١٠ : ١٧ .

يتعدىٰ أن يكون فكراً شيطانياً محضاً ، وعلى سبيل الفرض أنّ ذلك الرئيس يلزم الناس المعاصي ، فكيف يمكنه إلزامهم بالصدق والإنصاف ! ؟ .

والإلزام ، وكلمة «ملزم» هنا جاءت بعنوان توبيخ وهي موجودة في أغلب الأناجيل القديمة ، وإمّا الجملة التي جاء فيها : «رئيس العالم وليس له حصة منّي» ، أي إنّ الذي سيأتي من بعده شخصية مستقلة تماماً وليس فرعاً من نبوّة المسيح (ع) بل هو مكمّل لشرعة المسيح (ع) .

نحن نعلم أن «روح القدس» نزل على االحواريين بعد خمسين يوماً من صلب عيسىٰ (ع) ولم يلزمهم أبداً بالمعصية والصدق والإنصاف إذا إنه لم ينزل على الحواريين الذي لم يكذبوا المسيح (ع) طرفة عين بل إن نزوله على المنكرين والجاحدين لرسالة المسيح (ع) .

ولكن إذا قلنا أن المقصود من نزول «فارقليط» هو مجيء الرسول الذي وعد به المسيح والذي تجتمع فيه وفي وجوده المقدس كلّ هذه الصفات والمميزات لأصبح قولنا منطقياً جداً ومعقولاً .

هـ ـ «فارقليط سيشهد لي» باب ١٥/ جملة ٢٦ .

«وسينبئكم بمستقبلكم علاوة على تمجيده لي» باب ١٦/ جملة ١٤ .

إنّ الشهادة للمسيح لا يمكن أنْ يقوم بها روح القدس لأن الحواريين لا يحتاجون إلى مَنْ يشهد للمسيح بأنّه نبيٌّ لكونهم صدّقوه من قبل وساروا على نهجه ، وكذا التمجيد والثناء عليه ، وهذا ما قام به رسول الإسلام محمد (ص) حيث شهد له بالنبوة وأثنىٰ عليه من خلال إكمال رسالةٍ جديدة .

إنّ التدقيق في هذه القرائن يمكن أن يوصلنا إلى الحقيقة التي وصل إليها علماء ومحققوا الإسلام العظيم ، وإنّ هذه القرائن غير منحصرة بما قيل ، بل يمكن ـ من خلال تدقيقٍ أكثر وبحثٍ أعمق ـ العثور على قرائن

أُخرىٰ[1] .

وختاماً نمرُّ مروراً على موضوعٍ طريفٍ موجودٍ في دائرة المعارف الفرنسية الكبرىٰ ج ٢٣ ص ٤١٧٤ : -

«محمد مؤسس دين الإسلام ، ورسول الله وخاتم النبيين» كلمة «محمد» بمعنىٰ محمود بكثرةٍ ، ومصدرها «حمد» التي تعني التمجيد والتجليل . والعجيب وعلى وجه الصدفة إن اسماً آخر يترادف مع لفظ محمد ينتمي إلى نفس المصدر «حمد» وهو «أحمد» الذي يحتمل إحتمالاً قوياً بأنه هو المستخدم من قبل العيسويين الذين كانوا يقطنون شبه الجزيرة العربية والذي كانوا يبحثون عنه لتعيين «فارقليط» ، فأحمد تعني محموداً جداً وجليلاً جداً وهو ترجمة للفظ «باراكليتوس» والتي تُقرأ خطأً «بريكيويس» ولقد طرق سمعنا هذا الترتيب للكتّاب المسلمين مراراً حيث قالوا إن المراد من هذا اللفظ هي البشارة على ظهور رسول الإسلام . وقد أشار القرآن المجيد أيضاً وبشكلٍ علني إلى هذه الآية العجيبة في سورة الصف التي تهتم بهذا الموضوع[2] .

«أسئلة حول الفارقليط»

هناك دلائل وقرائن كثيرة وواضحة تشير إلى أنّ الفارقليط في آيات الإنجيل الذي بشّر به المسيح (ع) هو رسول العالم الموعود ، ولا يمكن أبداً أن يكون «روح القدس» الذي جاء في تفسير الإنجيل كما يدّعي بذلك مفسروه .

---

(١) أُستفيد من الكتاب النفيس «أنيس الأعلام» تأليف فخر الإسلام في تنظيم هذا البحث .

(٢) محمد خاتم الأنبياء ج ١/ ٥٠٤ .

لقد اعترضتْ أخيراً بعضُ المنشورات والصحف وانتقدت أولئك الذين يدّعون إنّ الفارقليط هو الرسول الموعود ، وقد جاء الإعتراض والإنتقاد على هيئة أسئلة . حيث تصدىٰ لها المحققون الإسلاميون بالإجابة التي لا تقبل الشك والخطأ ، كان ذلك قبل سنين كثيرة ولكنّ المبشّرين المسيحيين نهضوا اليوم من سباتهم وغفلتهم لإحياء تلك الأسئلة ، ولقد أجاب المرحوم فخر الإسلام في كتابه القيّم «أنيس الأعلام[1] » على جميع الأسئلة حيث طُبِعَ هذا الكتاب في طهران قبل أكثر من ٩٠ سنة ، وهذه الأسئلة سوف نستعرضها على التوالي لنجيب عليها :

السؤال الأوّل :

قال المسيح صراحةٍ إنّ الفارقليط روحٌ حقيقيةٌ ، وهذه الآية لا يمكن أن تتعلّق بمحمّد لكونه إنساناً وليس روحاً !

الجواب :

إنّ لفظ الروح التي استعملت في روح القدس يمكن إستخدامها في مطلق الأنسان الذي يمتلك روحاً ملهمةً بالفجور والتقوىٰ وإنّ إستعمال لفظ الروح في المعنىٰ الثاني وفي كتب العهدين كثيرة ، فعلىٰ سبيل المثال ما جاء في الرسالة الأولىٰ ليوحنّا كما يلي :

«أيها الأحبة لا تصدّقوا كلَّ روحٍ ، بل عليكم إختبار الأرواح على أنها من الله أو من غيره ، لأن الأنبياء الكذابين إزدادوا في العالم» .

فمن هُنا نعلم أنّ كلّ روح تتجسّد في عيسىٰ المسيح هي من الله ، وكلّ روح تتنكّر لتجسّدِ عيسىٰ ليست من الله وهكذا تلك الروح المخالفة للمسيح ، وأنّ الدّجال الذي سمعتم به بأنه سيأتي ، موجودٌ في العالم .

---

(١) أنيس الأعلام ج ٢/ ٨٨ ـ ١٠٩ .

نحن من عند الله وكلّ من يعرف الله يسمع حديثنا . ومَنْ لم يكن من عند الله لا ينصت لنا ، ومن هنا نتمكّن من التمييز بين روح الحق وروح الضلالة[1] .

هذه الجُمل تشير إلى إستخدام لفظة «الروح» وإشاعتها في غير «روح القدس» . وإنّ ذيل الآية يشير بصراحةٍ إلى أن كلّ شخصٍ يدعو إلى الحق والصواب ، يكون روحاً حقّانيةً . وكلّ فردٍ يدعو إلى الضلالة تكون روحُه روحَ ضلال .

وبناءً على هذا ، تكون المقولةُ المطلقةُ على النبي الموعود من أنّه روحٌ حقيقيةٌ ، لكونه سيدعو الناس إلى الحق والحقيقة ، صحيحةً .

وإنّ هذا النوع من التعبير بين شعوب العالم كثيرٌ (وسائغٌ) ، وإن التدقيق في ذلك يبتعد كثيراً بالمدقق عن الشك والشبهة .

السؤال الثاني :

هكذا قال المسيح (ع) بحق الفارقليط : إنّ العالم لا يتمكن من قبوله لأنهم لن يرونه ولن يعرفونه في الوقت الذي عُرِفَ فيه النبي محمد (ص) وشاهده آلالاف من الأشخاص . فكيف ذلك ؟ .

الجواب :

إن المقصود من المشاهدة أو الرؤية هو المعرفة ببصيرة الفؤاد وهذا ما حصل بالفعل للمسيحيين الذين لم يتعرفوا على رسول الإسلام أو لم يَرَوه . وإنّ الاستعمال بين الناس معروف ويُرىٰ بكثرةٍ حتىٰ في العهدين ، فمن باب المثال : يقول البعض أنّ فلاناً يمتلك فهماً ولا يفهم ويمتلك عيناً ولكنه لا يُبصر بها ، وهكذا قال أشعيا بحقهم : ستسمعون بإتصالهم ولكن لن

---

(١) الرسالة الأولى ليوحنّا : الباب الرابع : ١٢/ ٧ نقلاً عن العهد الجديد طبعة لندن عام ١٨٣٧ .

تفهموا ، نظروا ولكنهم لم يروا شيئاً أو يسمعوا شيئاً[1] .

وكذا الأمر بالنسبة للمعرفة حيث لم يتعرفوا على حقيقة رسول الإسلام بشكلٍ كاملٍ كل أولئك الذين يعيشون على سطح العالم ، وفي أغلب الأحيان لم يتقبلوه ، أي : لم يتعرفوا عليه . وهذا الاستعمال موجودٌ بكثرةٍ في كلّ اللغات وحتى في نفس الأناجيل فمثلاً التصريح الذي يقول : لا يعرف الابنُ «المسيحَ» غيرُ الله ، على الرغم من أن المسيحيين كلّهم عرفوه «لا يعرفُ الابنَ غيرُ الأبِ[2] » .

«قالوا له : أيها الاب أين أنتَ ؟ فأجاب عيسىٰ : أنتم لا تعرفونني ولا تعرفون أبي ، ومتىٰ ما تعرفتم عليَّ تعرفتم على أبي[3] » .

وبناءً على هذا فإنّ القصد من عدم رؤية العالم للفارقليط تعني عدم إدراكهم لحقيقته الكاملة .

السؤال الثالث :

إنّ المسيح وعَدَ الحواريين وبشّرهم في الوقت الذي جاء محمد (ص) بعد ٦٠٠ سنة من ذلك الوعد ، وفي زمانه لم يبق أحدٌ من الحواريين .

الجواب :

لقد كان المخاطَبُ «وهم الحواريّون» ظاهراً ولكنّ المقصود االحقيقي هم أمّةُ عيسىٰ (ع) .

إنّ جميع المصلحين والمحدّثين العالميين يستعملون هذا الأسلوب في الخطاب فتراهم يتحدثون إلى جمعٍ من الناس وهم يقصدون كلّ البشر

---

(١) إنجيل متى : باب ١٣/ ١٣ ـ ١٤ .

(٢) إنجيل متى : ١١/ ٢٧ .

(٣) إنجيل يوحنّا : ٨/ ١٩ .

بذلك ، وهذا كثير في الإنجيل حيث جاء : «وأقولُ لكم أيضاً إن إنساناً سوف يأتي بعد هذا الابن وعلى يده اليمنىٰ تأتي القوة كما تأتي غيوم السماء[1] » .

إنّ الذين خاطبهم المسيح (ع) حينها لم يشاهدوا شيئاً من هذا الوضع الذي جاء في خطابه بل لم تشاهد أمة عيسىٰ (ع) إلى الآن ذلك وبعد مضي ألف وتسعمائة وتسعين عاماً .

على أية حال ، إنّ النتيجة التي يمكن أن نتوصّل إليها هي : إنّ خطابات وأحاديث الرسل والأنبياء والمصلحين يُقصد بها عامة البشر ، وإن كانت تلك الخطابات في مجالس صغيرة لا يتعدىٰ جلّاسها عدة أفراد .

السؤال الرابع :

إنّ آخر سؤال هو إن المسيح (ع) قال بصدد الفارقليط «سيبقىٰ معكم وفيكم» فهل يمكن أن يبقىٰ محمد (ص) في شخصٍ ما ؟ لأنه في الإمكان أن يكون شخصٌ مع شخصٍ آخر ولكن كيف يكون أحدٌ ما في شخص آخر ؟ .

الجواب :

إنّ جملة «فيكم سيبقىٰ» تعني أحكامه وقوانينه ستبقىٰ إلى الأبد بينكم أو بين ظهرانيكم ـ وإن أحكامه سوف لن تُنسخ ولن تتمكن هذه النوعية من الشبهات الصبيانية أن تقلل من قيمة الآيات التي تتطرّق إلى ظهور الرسول الموعود مع كلّ هذه القرائن .

ينقل لنا المرحوم فخر الإسلام ـ الذي كان أحد مبشري المسيحية ـ بعد أن اعتنق الإسلام وأصبح مسلماً حقيقياً في كتابه «أنيس الأعلام» حيث

---

(١) إنجيل متى : باب ٢٦ : ٦٤ .

يقول[1] : ـ بعد سفرٍ طويلٍ خضته في تقصّي وتحصيل المعارف المسيحية وصل بي المطاف إلى معرفة أحد القساوسة الذي كان بدرجة مطرانٍ كاثوليكيٍّ عالي المقام وكان له موقعٌ مهمٌ في قلوب الكاثوليكيين ، إذا كانت تـأتيـه الهـدايـا الثمينـة والقيمّـة مـن سـلاطيـن وأشـراف وأعيـان المـذهـب الكاثوليكي ، ناهيك عن عدد الحاضرين لدروسه والذي يربو على الخمسمائة مريداً إضافةً للفتيات المسيحيات التاركات للدنيا واللواتي يبغين كسب الكمال في محضره .

وكان المطران على علاقةٍ شديدةٍ بي بحيث أصبحتُ مورد إطمئنان وثقة لديه ، حتى وصل الأمر به إلى أن يسلمني جميع مفاتيح كنيسته الخاصّة باستثناء مفتاحٍ واحدٍ لحجرةٍ صغيرةٍ مغلقة حيث أبقاه لديه .

وفي أحد الأيام ، أمرني الأستاذ المطران بالذهاب إلى قاعة الدرس لأُخبرَ الحاضرين ، بأنّ الأُستاذ حصلتْ له عارضةٌ من أجلها عطّل درسه لهذا اليوم .

ذهبتُ إلى قاعة الدرس ، وما إن أصبحتُ وجهاً لوجه مع الحاضرين حتى سمعتهم يتحدثون بحديثٍ كان محوره يدور حول لفظ «فارقليط» الذي جاء في إنجيل يوحنّا في الأبواب ١٤ ، ١٥ ، ١٦ وبعد إستماعي إلى منـاقشـاتهـم ومنـاظـرتهـم ، رجعـتُ إلـى الأستـاذ لأخبـره عـن الأحـاديـث والمذاكرات التي كانت تدور بين الطلبة حول لفظ «فارقليط» . وعندها سألني : ماذا تقول أنت في هذا اللفظ ؟ فأجبته بنظرية أحد المفسرين ، فقال : أنت غير مُلام على ذلك . ولكن تفسير لفظ «فارقليط» لا يعرفه في هذا الزمان إلاّ فئةٌ قليلةٌ ممن أسبروا أغوار المعارف المسيحية . وهنا جلستُ عند أقدام الأستاذ ورجوته طالباً منه تبيان حقيقة هذا اللفظ إليَّ . وفي تلك

(١) أنيس الأعلام ج ١/ ٤ و ج ٢/ ١٦١ .

اللحظة شاهدتُ عيني الأستاذ قد إغرورقتا بالدموع ليبدأ بعدها بالبكاء وقال : أنا مستعد أن أكشف لك الحقيقة بشرط أن لا تبوح بها في حياتي ، لأنك لو فعلت ذلك تكون قد أجهزت لقتلي . فعاهدته على أن لا أفشي سرّه ما دام هو على قيد الحياة . . . فقال :

«إن هذا الاسم هو من الاسماء المباركة لنبيّ الإسلام ويعني : أحمد ومحمد» وبعد ذلك أخرج مفتاح الحجرة الصغيرة المغلقة من جيبه وسلّمه لي قائلاً : إذهب وأخرج لي من الصندوق الفلاني تلكما الكتابين وائتني بهما ، فذهبتُ وجئته بالكتابين . . . كان خطُّ الكتاب الأوّل باليونانية والثاني بالسريانية التي كانت مستخدمةً قبل ظهور نبيّ الإسلام (ص) ، حيث كان الخطّان مكتوبين على صحائف من الجلد ، وإنّ كلا الكتابين قد ترجم لفظ «فارقليط» بمعنى أحمد ومحمد .

قال الأستاذ : إنّ العلماء والمفسرين المسيحيين لم يختلفوا على إنّ معنى «فارقليط» هو أحمد ومحمّد قبل بعثة رسول الإسلام ، ولكن بعد ظهور تلك الشخصية السامية ، ومن أجل حفظ مقاماتهم ومكانتهم إخترع مفسروا الإنجيل معنىً آخر لذلك اللفظ وهذا ما نراه جلياً في تدني وترتيب آيات الإنجيل وإن ذلك اللفظ لا يعني أبداً «الوكالة» و «الشفاعة» و «المواساة» و «الروح» النازلة في يوم الدار . ناهيك عن مجيء الفارقليط المشروط بذهاب المسيح ، ومن هذه الجملة نفهم بأنّ «الفارقليط» هو صاحب شريعة وإنّ اجتماع نبيين لكل منهما شريعة خاصة لا يكون ذلك صحيحاً في زمانٍ واحد .

لقد نقل لنا المرحوم فخر الإسلام قرائن إخرىٰ «تعرضنا لها سلفاً» عن أستاذه وأضاف : سألتُ أُستاذي عن شرعة المسيح ونظرته لها . فقال : إنها منسوخة . فقلت له : إذن ما هو طريق النجاة بالله عليك ؟ قال : إنّه منحصرٌ في السير على شريعة محمد (ص) ! فقلت : وهل ينجو من سار عليها ؟

فأجاب ثلاثاً : نعم والله ، فقلت : ولماذا لا تتبع أنت تلك الشريعة ؟ فأجاب : إنّي مسلمٌ في الخفاء وإذا ما أظهرتُ إسلامي خطّط المسيحيون لقتلي ، وإذا لم يتأتَ لهم ذلك فلا يتركوني وشأني ، وفي حال لجوئي إلى أي بلد مِن البلدان الإسلامية فإنهم سيصلون إليّ بشتىٰ الطرق والوسائل ويسفكون دمي .

وفي تلك اللحظة شرعت دموعي بالتساقط ثمّ غرقنا معاً في بكاءٍ وعويل ، بعد ذلك قلت له : أيها الاب هل تسمح لي بالدخول في الإسلام ؟ فقال : إذا كنت تريد النجاة وسأدعو الله لي ولك على أن تكون شاهداً على إسلامي الخفي ، وأنا لستُ وحدي في هذا الأمر بل هنا مجموعةٌ من القساوسة يوافقونني ويشاركونني عقيدتي هذه .

لقد أكمل المرحوم فخر الإسلام بقية قصته بشكل طريف حيث قال : إنّ رؤية الكتابين وحديث الأُستاذ الذي نوّر قلبي وجعل محبة خاتم النبيين تتغلّب عليّ وتنتصر حينها لم تتمكن الدنيا وزينتها من أن تكون مانعاً لي من تلك البيئة الطاهرة . . وبعدها طلبتُ من الأستاذ مبلغاً من المال وسافرتُ تاركاً ورائي كلّ ما أملك بإستثناء ثلاثة كتب حملتها معي في سفري الطويل لكي أصل إلى مدينة أرومية ـ إحدىٰ مدن إيران الحدودية ـ وفي ذات ليلة وصولي إليها تشرفتُ باعتناقي الإسلام في بيت المرحوم الشيخ حسن المجتهد الذي تعلمتُ منه ضروريات الشريعة الإسلامية ، وقد كتبتُ كلّ ذلك بالخطّ السرياني حتى لا يكون عُرضةً للنسيان . وقد طلبتُ وقتئذٍ من الشيخ حسن أن لا يُطْلِعَ أحداً على إسلامي لكي لا أكون عُرضةً للأذىٰ المتوقّع من جانب الأقارب والأجهزة المسيحية . ثمّ ذهبتُ إلى الحمّام واغتسلت غُسلَ التوبةِ من الشرك وجددتُ الشهادتين مرةً أُخرىٰ وأنا أقول : الحمدُ للّهِ الذي هداني لهذا وما كنتُ لأهتدي لولا أن هداني الله .

وبعد الختان والتحسّن صحياً شرعتُ بتعلم القرآن والمعارف الإسلامية

التي من أجلها سافرتُ إلى القبات المقدسة لأنهل من علم الأساتذة العلماء[1] .

«لا يُطفىءُ نورُ اللّهِ»

٧ ـ ﴿ ومَنْ أظلم مِمَّنْ افترىٰ على الله الكَذِب وهو يُدعىٰ إلى الإسلام والله لا يهدي القومَ الظالمين ﴾ [الصف/ ٧] .

٨ ـ ﴿ يريدون ليطفئوا نورَ اللّهِ بأفواههم واللّهُ مُتِمُّ نورهِ ولو كَرِه الكافرون ﴾ [الصف/ ٨] .

٩ ـ ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كَرِه المشركون ﴾ [الصف/ ٩] .

لا شك في إنّ إحدىٰ نِعمِ الله العظيمة على عالم الطبيعة هو «النور» ، حيث أن للنورِ مزايا ومميزات وخصائص بدونها لا تتمكن المخلوقات الحيّة «الحيوانية والنباتية وغيرها» من إدامةِ حياتها ، فإذا ما غاب الضياء والنور عن صفحة الدنيا يوماً واحداً لأنطوت صفحة العالم ولتلاشت واختفت الحياة من الوجود ، وعليه يمكن تقسيم الوظائف الرئيسية والآثار المهمة للنور إلى أربعة أقسام :

١ ـ ترشيد وتربية الكائنات الحية :

إن الكائنات الحية ، الحيوانية والنباتية التي تكون في دائرة النور تنمو

---

(١) كان المرحوم فخر الإسلام من المتمكنين علمياً حيث شوهد ذلك عليه عندما كان يناظر القسيسين لمعلوماته الواسعة والمتنوّعة . وأن تآليفه للكتب الإسلامية يعتبرُ خدمةً جليلة للإسلام والمسلمين ناهيك عن كتابه «أنيس الأعلام» في ردّ المسيحية الحالية وكتبه الأخرى مثل «بيان الحق» و «برهان المسلمين» و «تعجيز المسيحيين» ونأسف لعدم إمتلاكنا لأي معلومات عن حياته بشكل تفصيلي وحتى تاريخ وفاته لم يُعرف بشكل دقيق .

وتتكامل بصورة طبيعية ، وحتى التي في أعماق البحار فإنها ليست بعيدة عن النور على عكس تصور البعض من أن النور لا يصل إلى أعماق البحار والمحيطات ولكنّ الإكتشافات الحديثة برهنت على أن النور يصل إلى جميع نقاط البحار والمحيطات ليدخل ضمن العوامل في بناء أبدان الكائنات الحيّة الموجودة فيها ، وقد يحتمل بعض العلماء بأن الكائنات الحيّة تبني أجسامها من النور المنبعث من الحيوانات البحرية المضيئة .

وقد أثبت العلم بأن الظلمة المُحكمة في الأعماق والتي تتجاوز الخمسمائة أو الستمائة متراً تستمد نورها من الأشعة الحمراء والصفراء والخضراء والزرقاء المنبعثة من أشعة الشمس بل وحتى النور المظلم المنبعث من الشمس يؤثر على أبدان الكائنات الحيّة في أعماق البحار والمحيطات ليحمل أبدانها إلى أجسام ساطعة ومشعّة ، أمّا الكائنات الموجودة في الأعماق الأكثر من ستمائةً متراً فإن لون أبدانها يكون داكناً بعض الشيء وذلك لقلة النور الواصل إليها ، ولكنّه وفي نفس الوقت يصلها بشكلٍ مُرتب ومنظّم ، وبالنتيجة فإن تلك الكائنات الحيّة هي في الحقيقة بمثابةَ فوانيس حيّة تضيء أعماق البحار المظلمة[1] .

ففي شهر تموز إذا كنت راكباً على ظهر سفينة ونظرت إلى الماء فسيتبادر إلى ذهنك بأنّ إنعكاس ضوء النجوم أمسىٰ أكثر من الواقع وأن السماء قد امتلأت بعشرات الآلاف منها . وإذا أدخلت يدك في الماء فسترىٰ بأنّ أصابعك قد غطّيت بالذرات النورانية المتلألئة التي هي في الحقيقة إنعكاسات لحيوان غير منظورٍ يسمّىٰ بـ (نوكتيكوك) .

وخلاصة الأمر فإن الكائنات الحيّة التي تعيش في أعماق البحار وخاصة تلك التي تزيد أعماقها على ستمائة متراً ليست وحدها هي

---

(١) نظرة في الطبيعة وأسرارها ص ٦٠ .

المستفيدة . من النور بل النباتات الثابتة في الأعماق تستفيد أيضاًمن ذلك الأثر الذي به تديم حياتها في الأغوار العميقة[1] .

٢ ـ مما لا شك فيه أنّ أسرع حركة في الأشياء هي حركة النور حيث تصل سرعته إلى ثلاثمائة ألف كيلومترفي الثانية الواحدة أي ما يعادل خمسين ألف فرسخاً حيث لا يوجد موجودٌ ماديّ يمكن أن يصل إلى هذه السرعة ، لأن الجسم إذا تحرّك بسرعةٍ معادلةٍ لسرعة النور فسوف يستحيل فجأةً إلى طاقة غازية .

٣ ـ النور من الظواهر الواضحة والجلية حيث يتجلّىٰ بذراته التي تُدِلُّ عليه ، فعندما ننظر إليه فإننا لا نحتاج إلى شيءٍ آخر يساعدنا على رؤيته خلافاً للظواهر المادية الأُخرىٰ فإننا نحتاج إلى النور لرؤيتها ، كرؤية الأشكال والألوان وتشخيص الأجسام حيث لا يتم ذلك إلاّ بوجود النور .

٤ ـ أثناء الليل يطبقُ غطاءٌ سميك من الظلام على جميع الموجحودات وحركات البشر. بحيث لا يمكن التمييز بين عبادة الصالحين وبين مخططات قطّاع الطرق واللصوص الذين يستفيدون من ظلمة الليل ليشرعوا بارتكاب جرائمهم حيث يعودون آخر الليل إلى منازلهم تاركين المجتمع على حاله ، فكلّ هذه هي الآثار البارزة للنور الحسّي في حين أن هناك نوراً معنوياً يلتقي معه في هذه الآثار ، والتي استفاد القرآن الكريم كثيراً من هذا التشابه في الآثار بين النور المعنوي والنور المادّي . علاوة على ذلك فقد أضفىٰ القرآن الكريم لفظ «النور» على ذات الله[2] ، وعلى ثلاثة موارد أُخرىٰ :

١ ـ على الإسلام والإيمان بالله تعالى ، ونعت الكفر بالظلمة حيث قال :

---

(١) نظرة في الطبيعة وأسرارها ص ٦٥ ـ ٦٧ .

(٢) ﴿الله نور السموات والأرض﴾ النور/ ٣٥ .

﴿ اللّهُ وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلماتِ إلى النور ﴾ [البقرة/ ٢٥٧] .

٢ ـ على الكتاب المبين الذي هو القرآن : ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ [النساء/ ١٧٤] .

٣ ـ على النبي الأكرم (ص) : ﴿ قد جاءكم من الله نورٌ وكتاب مبين ﴾ [المائدة/ ١٥] .

وبناءً على هذا فقد يكون المقصود من عبارة «نورا الله» في جملة «ليطفئوا نور الله» المعاني الثلاثة التي ذكرناها .

ومن الممكن أن يكون المقصود بها هو القرآن الكريم لأنه وفي الآية السادسة من سورة الصف أشار إليه كنايةً وذكّر بعمل المسيحيين الذين نعتوه بالسحر المبين بعدما تعرفوا على موعد الإنجيل ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحرٌ مبين ﴾ [الصف/ ٦] . وجاء في الآية السابعة ما يلي : ﴿ ومَنْ أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدعىٰ إلى الإسلام ﴾ [الصف/ ٧] .

وافتراء أولئك الظلمه هو قولهم أنّ معجزة الرسول (ص) ـ أي القرآن ـ سحرٌ ظاهر ، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ النورالذي أراد الكافرون إطفاءَه هو القرآن الكريم .

وقد يكون المقصود من النور هو الرسول (ص) لأن الآية السادسة تشير إلى مجيء رسولٍ اسمه أحمد والذي هو مدار بحثنا .

وفي الآية التاسعة حديث عن البعثة ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ﴾ [الصف/ ٩] . وكذا يمكن أن يشمل الإحتمال شريعة الإسلام لأن البعثة متلازمةٌ مع دين الحق .

وخلاصة القول : إنّ المعاني الثلاثة تمتلك قرائن تحتمل أن تكون هي النور ، ولا يمكن ترجيح واحدة على الأُخرىٰ ، وفي كلّ الأحوال يبقىٰ القرآنُ نوراً ، والرسول نوراً ، والإسلام نوراً ، لأنّ كلّ معنىً من هذه الثلاثة يمتلك أثراً جليّاً من النور الحسّي بشكلٍ طريفٍ وقيّم .

لماذا نطلق عليها اسم نور ؟

إذا كان النور الحسّي يتمكّن من تنمية الكائنات الحية من الناحية الماديّة فإنّ النور المعنوي (القرآن ، الرسول ، الإسلام) يتمكّن من تربية القلب والروح ، وهو موجبٌ للتكامل الإنساني .

وإنّ الإنسان في ظل هذه الأنوار الإلهية التي تنبع من ذلك النور اللامتناهي لله سبحانه وتعالى يسير إلى آخر حدود التكامل علماً وعملاً .

فإذا كان النور الحسّي يُدلّل على نفسه وعلى الموجودات الأُخرىٰ فإنّ نور الحق يبقىٰ ساطعاً وواضحاً في القلوب والأرواح .

وإذا كان النور الحسّي قاطعاً لأيدي اللصوص ومانعهم من إرتكاب الجرائم ، فإنّ النور المعنوي لا يتيح أي فرصة للفاسقين في ممارسة الأعمال التي تدخل ضمن دائرة الإنفلات من الأخلاق الاجتماعية الفاضلة .

وإذا كان السّراق يمعنون التفكير في سلب أموال الناس في ظلمة الليل وتحت نقاط ضعف النور المعنوي ، فإنّ سرّاق الأخلاق يمارسون ـ من خلال الاستفادة من بعض الفرص ـ عملية تضعيف الأسس الأيمانية والقيم الأخلاقية بفكرٍ وضيعٍ ومنحط .

وإذا كان النور الحسي يمتلك سرعةً تبعث على الصداع بِطيّه للفواصل الزمنية والمسافات المكانية فإنّ النور المعنوي ينفذ في القلوب الطاهرة

والأرواح المطهّرة في أقل الفرص الزمانية ليسخّر قلوب الناس ويصل بها إلى أبعد نقاط الدنيا .

وعليه فإنّ النور المعنوي يتساوى مع النور المادي بسرعة نفوذه في القلوب والأرواح ، وإن القرآن الكريم يعطي أملاً قطعياً بظهور هذا النور «دين الحق» على كافة الأديان ويوصله إلى أقصىٰ نقاط العالم الدنيوي ويظهره على الدين كلّه ، أي ينصره على كل الأديان بدون استثناء .

«القطع بتاريخ هذا النصر» :

في الآية التاسعة إشارة واضحة إلى أنّ هذا الدين سيتغلب على أديان كلّ الأمم وجميع الملل ، وهنا ينبغي لنا أن نعرف ماهيّة وحقيقة «الأمم المغلوبة» فإذا كان المقصود منها أديان الشرك وعبادة الأوثان فهذا قد جرىٰ وتمّ في عهد رسول الله (ص) حينما كان الحجاز واليمن مركزان مهمين للشرك ، وقد تبدّلت معابدهم بمساجد إسلامية . يتصرفُ بها المسلمون .

أمّا إذا كان المقصود جميع الشرائع السائدة في ذلك العصر وإنّ الغلبة والنصر جاء دليلاً على ذلك ، فهذا أيضاً قد تمّ في زمن الرسول الأمين (ص) وبرهن الإسلام علىٰ هيمنته في صدره الأوّل علىٰ جميع الشعوب المناوئة بشكلٍ واضحٍ ومبينٍ لا يشكُّ فيه أيُّ منصف .

وليس ببعيد من أنّ المقصود بذلك هو هذا النصر الظاهري على الأعداء وسحق المخالفين الذين كانوا سدّاً مانعاً في وجه إنتشار الإسلام ، وإنّ مثل هذا النصر على الأعداء وتحطيمهم بالنحو الذي كان عليه في صدر الإسلام كان مقبولاً ، حيث أن أكثر نقاط المعمورة المتمدنة في ذلك الوقت وما تلاه توسّعت فيه رقعة النفوذ الإسلامي حتى بدت الدولة الإسلامية بوزنها السياسي والديني كأفضل دولةٍ على وجه البسيطة وهذا ما بشّرت به الآية التي تقول : ﴿ ليظهره على الدين كلّه ﴾ [الصف/ ٩] .

وسوف يأخذ النصر شكله التام والشامل على جميع أنحاء العالم عندما تتحقق الحكومة الإلهية الحقّة على يد قائم آل محمد ، حفيد رسول الله وآخر الأوصياء المعصومين الإمام المهدي المنتظر (عج) ، وعندها ستكون أذهان شعوب العالم مهيئةً لتقبّل تلك الحكومة التي تقوم على أساس التوحيد والفطرة والحق بعد أن تخرج من غثيان الحكومات الماديّة والأفكار الشيطانية والأعمال المشينة[1] .

«أفضل التجارات»

١٠ ـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليم ﴾ [الصف/ ١٠] .

١١ ـ ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون ﴾ [الصف/ ١١] .

١٢ ـ ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيّبةٍ في جنّاتِ عدنٍ ذلك الفوز العظيم ﴾ [الصف/ ١٢] .

١٣ ـ ﴿ واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ [الصف/ ١٣] .

إنّ كلّ فردٍ من أفراد البشر خلق وهو يحمل معه رأس مالٍ يختلف عن رؤوس أموال الآخرين ليتمكن من الإتّجار به في هذا العالم .

فقسمٌ حباهم الله تعالى برأس مالٍ قوامه الشباب والصحة والعقل وما إليه من أجل نيل المقام الرفيع والمَنصب والمال والثروة ، وهي أمور ماديّة ومعنوية ولكنها مرتبطة بهذه الدنيا الدنيّة التي لا طريق لها إلاّ الفناء .

---

(١) نور الثقلين ج ٥/ ٣١٧ .

ومثل هذه التجارة في مفهوم القرآن المجيد تجارة خاسرة ، لأنّ الشخص الذي يبذل رأس ماله الطبيعي الذي وهبه الله إليه في شراء بضائع فانية ، زائلة ، غير مخلَّدة له والتي ستؤول ملكيتها إلى غيره بعد وفاته دون أن تفيده عقب مماته .

وقد أشار القرآن الكريم في سورة العصر إلى خسارة الإنسان في تجارته الماديّة رغم رأس ماله الكبير وامتلاكه للمواهب والهبات الإلهية حيث قال : ﴿ **إنّ الإنسان لفي خُسر** ﴾ . فكلّ إنسانٍ خاسر لا محالة لكونه يبدد مواهبه بلّذاتٍ يوميّة بدون أن يحتفظ بشيءٍ لعالم الخلود والبقاء من خلال استخدامه الصحيح لهذه المواهب التي حباه بها الله تعالى . وفي آية أخرىٰ من آي القرآن الكريم والتي جاءت بالأخبار على صيغة السؤال والإستفهام موضحةً لنا : مَنْ هم الخاسرون ؟ : ﴿ **هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً** ﴾ [الكهف/ ١٠٣ ـ ١٠٤] .

إنّ القرآن الكريم يجسّد هنا حقيقة الأخسرين أعمالاً بأبلغ وأروع تعبير بقوله «ضلّ سعيهم» حيث يريد القول أن هؤلاء الأفراد وعلى أثر ضلالهم للطريق كان نتيجة سعيهم ضالّة ، في الوقت الذي كان بإمكان هؤلاء الأفراد أن يستفيدوا من المواهب الإلهية ويتخذوا لذائذ الدنيا وسيلةً وليس هدفاً وغايةً مَن أجل تأمين الحياة التي يرضونها ويرضىٰ الله تعالى عنها .

إنّ القرآن الكريم ومن منظار الوحي يرىٰ أنّ الحياة تكرّس للبذل في سبيل الله والفوز بعالم الخلود ما بعد الموت هي حياة خالدة في السعادة ، أمّا الحياة التي تستنزف المواهب الإلهية من أجل كسب الدنيا الماديّة فهي حياة شقية خاسرة .

فالإنسان الذي لا يرىٰ من الحياة إلاّ جانبها المادي وظواهرها

الحسيّة ، التي تسير به نحو محطة النهاية الحتمية ألا وهي الموت لا يمكنه اعتبار ذلك نجاحاً وتوفيقاً وفوزاً . لأن إهمال الجوانب المعنوية والإنكباب على الجوانب الماديّة فقط هو خسارةٌ محضة من وجهة نظر فلسفتنا الإسلامية وفكرنا ونظريتنا ناهيك عن المبادىء السامية للأنبياء والمرسلين .

ومما لا شك فيه ، إن النظر بمنظار الوحي لا يُرينا الدنيا إلاّ خسارة وبالمنظار المادي نشاهدها شلاّلاً من الأرباح والفوائد والملذات .

إنّ القرآن الكريم وفي الآيات التي تعرضنا لها يقول : إذا كنتم ﴿ **تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم** ﴾ فسوف تنالون : ـ

١ ـ يغفرُ اللّهُ لكم ذنوبكم .

٢ ـ يدخلكم اللّهُ جناتٍ .

أمّا الذين تدفعهم المنافع الدنيوية إلى الجهاد فقد أشار إليهم القرآن الكريم في مواضع عديدة واعتبر الحصول على المنافع المادية والغنائم من الأمور الثانوية مؤكداً بأنّ الهدف الأساسي من الجهاد هو مكاسبه المعنوية أما الغنائم فهي فقط لتحريك وتشجيع البعض من المجاهدين لتحقيق الغاية المنشودة من الجهاد لذلك قال القرآن الكريم في الآية الثالثة عشر من سورة الصف ﴿ **وأُخرىٰ تحبونها نصرٌ من الله وفتحٌ قريب** ﴾ .

شخصية الحواريين في الانجيل والقرآن

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين مَنْ أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصارُ اللّهِ فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ فأيّدنا الّذين آمنوا على عَدّوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ [الصف/ ١٤] .

إنّ حواريّ[١] عيسى هم أصحابه وتلامذته الخاصّون ، وهم الذين آمنوا به من صميم قلوبهم ، ونشروا دينه بعد غيابه عن العالم وهم إثنا عشر شخصاً مقرّباً تندرج أسماؤهم كالآتي :

(١) إن المفسرين واللغويين ذكروا معانٍ متعددة للحواري كتب ابن فارس في المقاييس :
إنّ أصول وجذور معنى «حور» ثلاثة أشياء :
أولاً : اللون ، حيث يقال أن لفظ الحور يستعمل في شدة بياض وسواد العين .
ثانياً : الرجوع والعودة مثل : «ظن أن لن يحور» .
ثالثاً : الصفاء والطيبة : فإذا ما قال أحد لصاحبه الملازم له «حوري» قد يكون يقصد بها الطهارة وصفاء القلب وعدم وجود نقطة سوداء في روحه .
يقول الطبرسي في مجمع البيان ج ١/ ٤٤٧ : إنّ السبب في إطلاق اسم «الحواري» على أصحاب المسيح لكونهم يشتغلون في تبيض ملابس الناس بعد غسلها .

١ ـ شمعون المعروف ببطرس. ٢ ـ أخوه إندرياس. ٣ ـ يعقوب بن زيْــدي. ٤ ـ أخــوه يــوحنّــا. ٥ ـ فيلُبِــس. ٦ ـ بــرتــولمــا. ٧ ـ متــى. ٨ ـ يعقــوب بــن حلفــي. ٩ ـ لبــيء المعــروف بتــدّي. ١٠ ـ توما. ١١ ـ شمعون قانوي. ١٢ ـ يهوداي إسخر بوطي[١].

إنّ القرآن الكريم والإنجيل كلٌّ منهما قد أعطىٰ حكمه على الحواريين وشخصياتهم وإن كان حكمهما متفاوتاً فيما بينهما ، حيث قضى لهم القرآن الكريم بالتساوي في الاخلاص والإلتزام بمبادىء المسيح (ع) وحملهم روح التضحية والفداء في سبيله ، حيث ورد ذكرهم في القرآن في الآية التالية حيث مورد بحثنا مستشهداً بجهادهم وثبوتهم ، لأجل أن يحرّض المسلمين ويدفعهم إلى التضحية والفداء في سبيل الإسلام ولكي يحرّك عواطفهم نحو الجهاد في سبيل الله مستخدماً في هذا جواب الحواريين «نحن أنصار الله ؟» حينما استنجد بهم المسيح بقوله «مَنْ أنصاري إلى الله ؟ وإليك النص القرآني :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسىٰ ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ .

هكذا يرىٰ القرآن الحواريين وكيف يضرب بهم الأمثال الحُسنىٰ .

أمّا حكم الإنجيل على شخصية الحواريين فقد جاء متناقضاً ومختلفاً ، حيث أعتبر قربهم المعنوي من المسيح (ع) لكونه صاحب كرامات ومعجزات وأعمال خارقة ليس غير[٢] ، في حين رسمت أناجيل أُخرىٰ

(١) إنجيل متى : باب ١٠ طبعة لندن عام ١٨٣٧ بإشراف بيبل سوسيتي كرت سيم وقاموس الكتاب المقدس ص ٤١٤ مادة الرسول .

(٢) كتب في إنجيل متى في الباب العاشر وضمن الجملة الأولىٰ بصدد هؤلاء الإثنا عشر نفراً : إذن طلب تلامذته الإثنا عشر منه أن يُخرج الأرواح الشريرة . ومنحهم الشفاء

صورةً للحواريين عجيبة أظهرتهم بأنهم ليسوا أشخاصاً غير لائقين بهذا المقام السامي والمرتبة الرفيعة فحسب بل صوّرتهم بأنّهم رجالٌ فاسقون وغير ملتزمين . . . .

في حين نرىٰ القرآن الكريم ـ وهذا سرُّ إعجازه ـ منسجماً في أحكامه متسلسلاً في أحداثه ، صادقاً في أحاديثه ، رغم تعرضه للكثير من المواضيع المختلفة وعلى مدىٰ أعوام طويلة ومع ذلك فإنه لم تحصل فيه حالة تناقضٍ واحدة في حكم أو غيره ، ولم يحدث أن أغمط حقاً لفردٍ أو جماعة لكونه دستوراً مصوناً من قبل عالم الوحي ومحفوظاً عن الزلل والعطل وإنّ مصونيته وصيانته من الله تعالى ، حيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه .

فلو أنّه كان كتاباً ناتجاً عن حصيلة أفكارٍ وآراءِ شخصٍ تعرَّض فيه إلى ما تعرّض له القرآن لوجدنا فيه اختلافاً وتناقضاً كثيرين . ولو تصفحنا القرآن لوجدنا بأنّ التكرار في المواضيع والحوادث لفظاً ومعنىً ما هي إلاّ نماذج حيّة تشهد بوضوح على ما تعرضنا له . ومن ناحية أُخرىٰ لو أخذنا موضوع الحواريين الوارد ذكره في هذه الآية الكريمة أو في آياتٍ أُخرىٰ وجعلناه على بساط البحث لوصلنا إلى نتيجة لا تعكس إلاّ الطهارة والخلوص والإيمان الراسخ لأولئك الرجال «الحواريين» .

ومن المنظار المعاكس سوف تظهر جلية تناقضات الإنجيل في حكمه على هؤلاء المخلصين وما ألصق بهم من التهم والإفتراءات التي توقفنا أمام السؤال التالي : أيّ من القرآن الكريم والإنجيل أليق بأن يكون كتاباً سماوياً ؟ .

= من كلّ مرض ونصب وعناء .



القرآن يمتدح الحواريين :

١ ـ إنهم أنصار الله :

أثناء دعوة المسيح (ع) بني أسرائيل لمشاهدة معاجزه وعلائم تصديقه للتوراة أحسَّ بأنّ بني إسرائيل يفكّرون بالإنكار والإعراض والكفر برسالته ، لذا فإنّه ومن أجل تمييز أصحابه وأنصاره رفع صوته قائلاً : ﴿ **مَنْ أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريّون : نحن أنصارُ الله آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون** ﴾ [آل عمران/ ٥٢] .

وكذا الآية التي هي مورد بحثنا فإنها تتعرّض إلى نفس الموضوع وتنقله بنفس المضمون والشكل والأسلوب ما عدا التغيير الحاصل في الألفاظ الذي لا يؤثر على المعنى بتاتاً .

٢ ـ الإيحاء إلى الحواريين :

لقد استخدمت كلمة الوحي في اللغة العربية بمعانٍ عدّة وقد ورد أحد معانيها في القرآن الكريم بمعنى الإيحاء إلى القلب . ومن دون شك ان

الايحاء إلى القلب له شروطه الخاصة وموجباته اللازمة في الموحى اليه فمن كانت روحه طاهرة وفي منأىٰ عن دَنَس المعاصي والذنوب كان جديراً ولائقاً في إكتساب هذه الموهبة والتكريم الإلهي ، إذ أنّ الإيحاء إلى أم موسىٰ (ع) بأن ترضع وليدها وإذا خافت عليه فتلقيه في اليم خشية أن يلحقه أذىٰ فرعون وجلاوزته وإنه سوف يُرسل إلى نبي إسرائيل من قبل الله تعالى . . . ما كان ذلك الإيحاء حاصلاً لولا طهارة أم موسى ولياقتها المعنوية لهذا الإيحاء الالهي .

وكذلك فإنّ الحواريين ـ كما جاء في تصريح القرآن ـ كانوا أهلاً لمثل هذا الإيحاء : **﴿ وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أنْ آمنوا بي وبرسولي قالوا : آمنّا وأشهد بأننا مسلمون ﴾** [المائدة/ ١١١] .

٣ ـ نزول المائدة من السماء عليهم :

على الرغم من أنّ الحواريين أخذوا عقيدتهم الراسخة عن المسيح (ع) فإنّهم ـ زيادةً في الاطمئنان وصعوداً في مراتب اليقين والايمان طلبوا منه مائدة تُنّزل عليهم من السماء تكون لهم عيداً لأوّلهم وآخرهم ، وإنّهم على يقينٍ لا يشوبه أدنىٰ شك في عيسىٰ ولا في نبوّته .

كما حصل لإبراهيم الخليل (ع) ، على الرغم من إيمانه الراسخ بالله وباليوم الآخر ، حيث طلب من الله سبحانه أن يريه كيف يحيي الموتىٰ ، فقال له الله تعالى : ألمْ تؤمن ؟ فأجابه بالإثبات القاطع باليقين بأنّ إيمانه راسخٌ ولكن طلب ذلك لكي يطمئن قلبه .

﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتىٰ قال أو لمْ تؤمِن قال بلىٰ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة/ ٢٦٠] .

فبمثل هذه الصنيعة علّل الحواريون طلبهم من المسيح (ع) الذي هو المائدة أو الخوان السماوي قائلين :

﴿ نريدُ أن نأكل منها وتطمئنَّ قلوبنا ونعلم أنْ قد صدقتنا ونكونَ عليها من الشاهدين ﴾[المائدة/ ١١٣] .

قبل المسيحُ طلبهم ودعا إلى الله بأن ينزلّ عليهم تلك المائدة لتكون عيداً وعلامةً من الله على صدق رسالته (ع) .

﴿ قال عيسىٰ ابن مريم اللهم ربّنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إنّي مُنّزلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإنّي أُعذبه عذاباً لا أعذبّه أحداً من العالمين ﴾ [المائدة/ ١١٤ ، ١١٥] .

إن الآيات المتقدمة توضّح لنا مقام ومكانة الحواريين في القرآن الكريم ، وإنّ المسلمين يؤمنون بذلك إيماناً راسخاً ولكنْ دعنا نتصفّح كتب العهدين ونراها ما تقول عن هؤلاء الحواريين وكيف تصوّر شخصياتهم .

شخصية الحواريين في كتب العهد الجديد

جمع مؤلف «قاموس الكتاب المقدس» قطعاً كثيرة من كتب العهد الجديد تتناول شخصية الحواريين . وكلّ هذه القِطَع تدلّلُ على عظمتهم وجلالهم ، ننقل إليكم بعضاً منها :

«إنّ الحواريين هم التلاميذُ المقربون من المسيح (ع) وقد شهد لهم بالجلالِ من خلال إنتخابه لهم وإنسجام روجه مع أوراحهم حيث علّمهم تعاليمه الخاصّة ، ولا سيما أن منزلة ومكانة الحواريين إنطوت بانتهاء حياتهم ولم تُمنح أو تُسلَّم إلى ممثلين عنهم أو تابعين لهم وذلك لرفعة وقداسة المنزلة التي لا تليق إلاّ بهم .

إنهم كانوا أُناساً أميين ولكنّه إصطفاهم وانتخبهم من بين عامة الناس بعد أن نزلت إليه الأوامر الإلهية المقدسة بتقريبهم ومتابعتهم والتزامهم لكي يسمعوا أقوال المسيح (ع) ويشاهدوا أفعاله حتىٰ يصبحوا مؤمنين وجلين ، يتدرجون في إدراك حقائق وتعاليم الإنجيل حيث يتسنىٰ للمسيح بعد ذلك إيفادهم وإرسالهم إلى الناس من أجل الوعظ والإرشاد ونقل أخبار معجزاته وخوارقه وقدرته على إحياء الموتىٰ وشفاء الأبرص والأجذم وغيرها .

لقد كان الحواريون مندفعين بهذا التبليغ على حدٍّ سواء وليس هناك تفاضلٌ بينهم ولم يدّع أحدٌ منهم بذلك إلاّ أنّ بولص كان أكثرهم اقتداراً وإمكانيتةً وعملاً .

لقد ارتقىٰ الحواريون تدريجياً سُلَّم الفهم والإدراك لرسالة المسيح (ع) حتى فاضت روحه على الجميع . حتى أنّه جاء في كتاب أعمال الحواريين أنّ حالة إنكار الذات تتشابه عند هؤلاء الرجال الإثني عشر مع الحالة التي كان يتمتع بها المسيح . وأنّ أعمالهم وأفعالهم كانت تتطابق مع الإرادة الإلهية وتنسجم مع المحبة التي أفاضها الله عليهم ، حتى أنّ رغباتهم وميولهم كانت لا تتعدىٰ رضا المسيح وتعاليمه المستندة إلى رضا الله سبحانه وتعالى(١) .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ٤١٤ ، ١٤٥ وهذا الإقبال لا يتأتى من إنجيل متى ، ولوقا ، ويوحنا وسائر كتب العهد الجديد مثل كتاب أعمال الرسل ، وكتاب قرنتيان والكتاب الأوّل «تسالونيكيان» مع ذكر خصوصيات الكتاب وفصوله وإعداد جمله ، ولأن هذا الكتاب أصبح ساقطاً من إعتماد الكنسية العالمية ، لذا كان تعيين سند أي من هذه الكتب يعود إلينا .

شخصية أخرىٰ للحواريين في العهد الجديد

نرىٰ هنا صورةً أُخرىٰ تُجسِّد لنا صدق ونزاهة الحواريين مقابل تلك الصورة التي رأيناها في العهد الجديد والتي عرفنا مدىٰ تقييمها لهم .

وهنا يبقىٰ الإنسان في حيرةٍ من أمره فأيّهما يصدّق ؟ وأيّهما يكذّب ؟ فهذا إنجيل متّي يضجُّ بكرامات الحواريين وشفائهم للناس وتبرئتهم من الأمراض وغير ذلك ، في حين يذكر في مكانٍ آخر بأنّ الحوري يهودا الأسخربوطي ندم على فعلته الشنعاء وانتحر بعد أنْ أدرك خطأه وخطيئته في بيع سيده المسيح إلى اليهود بثلاثين درهماً .

وجاءت لمحةٌ أُخرىٰ في إنجيل متّي حيث تقول : «أصبح الصباح ، وتشاور الرؤساء القدماء والمشايخ وقرّروا قتل عيسىٰ ، وبعد سحبه مقيّداً إلى الخارج وتسليمه إلى بنطيوس بيلاطس الحاكم ، قام يهودا الأسخر بوطي بإرجاع الثلاثين درهماً التي استلمها من اليهود مقابل تسليمه المسيح إليهم وسلّمها إلى رئيس الكهنة قائلاً : لقد أخطأتُ وسلّمتُ دماً لا خطيئة له ، فقال رئيس الكهنة : وماذا أعمل فأنت أعرف بذلك . وبعد وضعه الدراهم الفضية على الهيكل رجع ليخنق

نفسه»[1] .

«الحوري السارق»

أما إنجيل يوحنّا فقد كتب بشأن يهودا بالشكل التالي :

«لقد كان ذلك الحوريّ مسيئاً طول حياته ، ويقال بأنه كان لصّاً ومن أصحاب السوابق وليس غريباً ولا عجيباً فِعْلُه الذي فَعَلَهُ مع عيسىٰ المظلوم حيث سلّمه للظالمين اليهود» .

وقد ورد في إنجيل يوحنّا بصدد وصف يهودا بما هو آتٍ :

«جاء عيسىٰ قبل عيد الفصح بستة أيام إلى بيت «عَنْيا» في مكان «إيلعازر» والذي كان قد نبهه من غفلة الموت ، وهناك أطعموه حيث كان «مرثا» يخدمه «وإيلعازر» يجالسه ، ولقد حصلت مريم علىٰ رطلٍ من عطر السنبل الثمين لتمسح به أرجل عيسىٰ وتجفف رجليه بشعرها فامتلأت الدار بذلك العطر وعندها قال أحد تلامذته ويعني يهودا الأسخربوطي إبن شمعون والذي خانه فيما بعد : لماذا لم يُعطَ ثمن ذلك العطر وهو ثلاثمائة ديناراً إلى الفقراء ، وقيل بأنه ما قال ذلك لتفكيره بالفقراء عندما رأى مسألة العطر ، بل لأنه أصبح لصّاً ، وكان له كيسٌ يحمل فيه ما سرق[2] .

«مشكلة المسيح ونوم الحواريين»

كان المسيحُ يتألمُ مما بَدَرَ من الحواريين ، لأنّه أمرهم أن يبقوا يقظين ولكنّهم ناموا ، حيث صلّىٰ المسيحُ قليلاً ثم جاء ليرىٰ الجميع يغطّون في نوم عميق ، فقال لبطرس : ألم تستطع البقاء يقظاً لمدة ساعةٍ واحدة لكي تدعوَ معي ؟ ثم عاد ثانيةً ليؤدي الصلاة فرآهم نائمين ، وفي المرّة الثالثة رجع

---

(١) إنجيل متى : باب ٢٧ : ١ ـ ٥ الطبعة السابقة .

(٢) إنجيل يوحنا : باب ١٢/ ١ ـ ٦ الطبعة السابقة .

وقال لهم : ناموا وأريحوا أنفسكم[1] .

لم يكن فقط نومهم صعباً على عيسىٰ ، بل كانوا يهربون ويفرّون حينما يرونه واقعاً في مشكلة[2] .

والآن ينبغي لنا أن نسأل : ـ أيّ الحالتين يمكننا قبولها ، الحالة الأولىٰ التي تصوّرهم بأنّهم أصحاب كرامات وأعمال خارقة ؟ أم الحالة الثانية التي تتحدث عن جبنهم وضعفهم وتخاذلهم وعدم إلتزامهم ؟ .

في الحقيقة أننا لا نظنّ بأن هناك مؤمناً بسيطاً يقبل مثل هذه الأعمال من قبيل : بيع المسيح بثلاثين درهماً إلى اليهود ، والنوم عندما يكون عيسىٰ (ع) في محنة الشدّة ، أو عندما يقع في مشكلةٍ يهرب عنه ويفرّ منه ! !

«زعماء المسيحية يتبرَّأون من المسيح»

إنّ بطرس رئيس الحواريين وخليفة عيسىٰ كان مثل الباقين ينام عندما تحلّ المشاكل بعيسىٰ ، ويهرب منه عند الشدّة ويتركه وحيداً ، وإنّه أبدىٰ ما يُسيء إلى الشهامة حين مرَّ على منزل رئيس الكهنة ودخل منزله وجلس فيه . وعند جلوسه جاء أحد العبيد وقال له : إنك كنت مع عيسىٰ الجليل ؟ فيجيبُ بطرس بالإنكار قائلاً : أنا لا أعرف ما تقول .

ثم يأتي عبدٌ آخر ليقول لبطرس مثلما قال صاحبه ، فينكر بطرس مرة أُخرىٰ إلى الحدّ الذي يصل به إلى القسم كَذِباً بعدم معرفته للمسيح (ع) .

وفي المرّةِ الثالثة يدخل عِدّةُ رجالٍ يقولون له كما قال له العبدان السابقان بمناصرته لعيسىٰ . . . وعندها تفضحه لهجةُ حديثه وكلامه ، فيبدأ باللعن ، والقسم بعدم معرفته المسيح ثم يبدأ الديك بالصياح وهنا

---

(١) تلخيص من أجل متى : باب ٢٦/ ٣٦ ـ ٤٦ .
(٢) إنجيل متى : باب ٢٧/ ٥٧ .

يتذكّر بطرس حديث عيسىٰ له بأنه سوف يلعنه ويتنكّر له قبل صياح الديك ثلاث مرّات وما إن يتذكّر ذلك حتى يبدأ بالبكاء والنحيب والخروج[1] .

«الشيطان بطرس»

عندما كان عيسى يروي لتلاميذه أخبار ما سيؤول إليه من مصير ، يُمسكُ به بطرس ويلومه على كلامه ويقول : إلهي هذا بعيد ، وإنّه لن يقع لك ذلك . فيجيبه المسيح (ع) : أيها الشيطان أغرب عنّي إنك سبب ما أعاني والاقي ، وإن أفكارك أسطورية وليست إلهية[2] .

إن هذه نماذج من النقائض التي جاء بها العهد الجديد ، ولا نعلم كيف ستكون هذه النماذج أنواراً لهداية العالمين ؟ .

وهنا تبزغ عظمة القرآن الكريم وإصالته لأهل التحقيق واضحةً وجلّيةً ، وتبرز مسألة مهمة جداً هي أن القرآن المجيد لم يتمكّن منه أحدٌ أبداً فهو كما أُنزِلَ وسيبقىٰ كذلك ما حيينا .

إن الأحاديث الإسلامية تتفق فيما بينها حول عظمة وتضحية أصحاب المسيح (ع) . وقد ذكر كتاب بحار الأنوار[3] أحاديثاً كثيرة تتعلق بهذا الموضوع . . . أتمنىٰ أن تُراجع حتى يطّلع إخواتي على صدقها وصحتها .

«تمّ بعونه تعالى»

---

(١) نقلاً عن إنجيل متي : باب ٢٦/ ٥٨ ـ ٧٥ .

(٢) إنجيل متى : باب ١٦/ ٢٣ ـ ٢٤ .

(٣) بحار الأنوار : ج ١٤/ ٢٧٢ ـ ٢٨٢ .

الفهرس

الموضوع .... الصفحة

شكر ٥

المقدمة ٧

ما هي خصوصيات سورة الصف ١١

الاختلاف بين الحمد والتسبيح ١٦

١ ـ سجود الجميع لله تبارك وتعالىٰ ١٦

٢ ـ سجود ما في العالم من دواب وملائكة ١٧

٣ ـ سجود النجم والشجر ١٧

٤ ـ سجود ظلال الأجسام ١٨

٥ ـ سجود الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ١٨

ما هو المقصود في سجود الكائنات ١٨

حقيقة السجود في عالم الكائنات ١٩

١ ـ السجود طوعاً وكرهاً ٢٠

٢ ـ تسبيح جميع موجودات العالم ٢١

آراء المفسرين في تسبيح الكائنات ٢٤

وجود الشعور عند جميع موجودات العالم ٣١
شيوع المعرفة في الجمادات ٣٣
تمادي الشعور وعلم اليوم ٣٩
٣ ـ قول بلا فعل ٣٩
أفضل الموعظة ما كانت عملية ٤١
أفضل مذهب تربوي ٤٢
لماذا معصية كبرىٰ ٤٣
٤ ـ الجهاد في سبيل الله ٤٥
مثال آخر لهذه الأفكار ٤٧
لم يكن الإسلام دين سيف ٤٨
الجهاد أمر فطري ٤٨
الجهاد الأول في الإسلام كان دفاعياً ٥٠
نماذج من الجهاد الدفاعي ٥٢
مميزات الجهاد الدفاعي ٥٣
الدافع من تشريع الجهاد التعريضي الإبتدائي ٦
من المنفذ لهذين الأصلين ٥٨
أسئلة تنتظر أجوبة ٦٠
١ ـ الجهاد وقضية الحرية ٦١
٢ ـ محدودية تأثير القلم والبيان ٦٣
٣ ـ تأثير البيان في البيئة الحرّة ٦٤
القتل الجماعي لدعاة الإسلام ٦٦
٤ ـ هل إن الجهاد قانون دائم ٦٧
٥ ـ كيفية الجهاد في عصرنا الحاضر ٦٨
جهاد من دون حرب ٧٠
٥ ـ المجتمع الفاسق المؤذي ٧١

القصد في الأذىٰ ٧٢
العلم يدعو للعمل ٧٣
القرآن وحرية الإنسان ٧٥
حكم القرآن في أفعال البشر ٧٦
ذريعة أُخرىٰ للجبريين ٧٨
ما هو المقصود من القلب في آيات القرآن ٧٩
المسيح (ع) يبشر برسول من بعده اسمه أحمد (ص) ٧٩
أحمد المعروف بمحمد (ص) ٨١
كيف صدّق عيسى (ع) التوراة المحرف ٨٣
نسخ الانجيل وشهادتها على مجيء الرسول (ص) .... ٥.
التحقيق في الاناجيل الحالية ٨٦
الإنجيل يبشر بمجيء فارقليط ٩١
ما هو الفارقليط ٩٣
أسئلة حول الفارقليط ٩٨
لا يطفىء نور الله ١٠٦
لماذا نطلق عليها اسم نور ١١٠
القطع بتاريخ هذا النصر ١١١
أفضل التجارات ١١٢
شخصية الحواريين في الإنجيل والقرآن ١١٥
القرآن يمتدح الحواريين ١١٩
١ ـ انهم أنصار الله ١١٩
٢ ـ الإيحاء إلى الحواريين ١١٩
٣ ـ نزول المائدة من السماء عليهم ١٢٠
شخصية الحواريين في كتب العهد الجديد ١٢٣
شخصية أُخرىٰ للحواريين في العهد الجديد ١٢٥

الحوري السارق ١٢٦
مشكلة المسيح ونوم الحواريين ١٢٧
زعماء المسيحية يتبرأون من المسيح ١٢٧
الشيطان بطرس ١٢٨
الفهرس ١٣١